

## الرواية في القرن الماضي

- ١ -

لم يكن من الطبيعي أن توجد الرواية الأمريكية الأصلية في القرنين الأولين من هجرة الأوروبيين إلى القارة الجديدة . ذلك أن الهجرة كانت على دفعات متقطعة حتى إن عدد سكان الولايات المتحدة آخر القرن الثامن عشر لم يتجاوز أربعة ملايين ، فيهم أكثر من نصف مليون من العبيد . ولم تكن الهجرة قليلة العدد أول أمرها إذا قيست باتساع آفاق القارة الجديدة وامتداد رقعتها فحسب ، ولكنها كانت في الوقت نفسه منتظمة تحت رعاية بريطانيا العظمى سياسياً بشكل واضح ، بحيث لم تكن الولايات الأولى في الواقع أكثر من مستعمرات إنجليزية تدار سياستها في البرلمان الإنجليزي .

ولكن الشعب الأمريكي ما كاد يحس كيانه شيئاً ما حتى أخذ في دفع السلطان الأجنبي وتقوية الحكومة الداخلية . ولما أعلن استقلاله التام بعد حرب الثورة سنة ١٧٧٦ لم يصف له الجوّ ، فلقد ظلت أمامه طائفة كبيرة من المسائل الخارجية والمشاكل الداخلية تستنفد أكثر حيويته وتشغل بال السياسة والحكام ، بل الشعب أيضاً ، عن التفكير في الإصلاح بله الفنون والعلوم .

وما ينبغي لنا أن ننسى أن المهاجرين إلى الأرض الجديدة لم يجدوا الطريق أمامهم مفروشاً بالذهب بالرغم من الثراء الخيالي الذي أحرزوه فيما بعد ، مما أغرى الناس بالهجرة إليهم . لقد كان كل مهاجر مضطراً إلى الجهاد مع الطبيعة في سبيل التعمير ، مضطراً إلى الجهاد مع سكان هذه الطبيعة أيضاً ليستطيع أن يعايشهم . كان المهاجرون يأتون من أوروبا خاصة ولكنهم جاءوا أيضاً من كل صوب ، حتى من الصين ، وأحلام الذهب هي التي تدفعهم ، ولكن قناطر الذهب لم تكن لتلقاهم على الميناء . لقد كانوا مضطرين إلى أن يجاهدوا في قسوة . ولاننسى أن منهم

من مات ومنهم من لم يصل إلا إلى القليل فعاش على هذا القليل ؛ ولكن روحاً قوياً أخذ يتجلى في هذه الطائفة الوافدة على الأرض الموعودة بسبب هذه الرغبة القوية في التغلب على كل الصعاب حتى لا يضطر المهاجر إلى أن يعود إلى ما قد هجر من جحيم وراء البحار . وإذا هذا الروح المعاند المغالب المستميت القوى ، الذى تفهقرت أمامه الحدود الغربية تفهقراً جباراً خفيفاً رهيباً طوال قرنين تقريباً من الزمان حتى غرقت في المحيط الهادى وتلاشت فيه ، يصبح الطابع القوى الذى تلتقى عنده أول ما التقت صفات هذا الشعب الحديد .

ومنذ فجر القرن الثامن عشر تبدأ طلائع هذا الشعب تخط السطور الأولى في تاريخ الأمة الأمريكية الجديدة . أمة لها صفاتها التى تميزها ، ولها في الوقت نفسه أهدافها التى يسعى شعبها كله إلى تحقيقها .

ذلك أن الصعاب الداخلية ، وأهمها تهية هذا الوطن الفج للعيش على أرضه ، والصعاب الخارجية وهى تأمين مصالح هؤلاء المجاهدين في سبيل الحياة من جشع المستعمرين والطامعين من شعوب أوروبا الداھية في السياسة المستعدة بجيوشها وأساطيلها ، قد خلقت لهذا الشعب الوحدة التى يجتمع عليها والنواة الصالحة التى يلتف حولها ، فلما أصاب هذا الاجتماع أو تلك الوحدة تصدع أو خطر رأيناها تبرأ منه في سرعة عجيبة ؛ لأن الأساس كان قد بنى متيناً قوياً منذ أول الأمر .

هذا الروح المعاند المكابر الهازىء بالصعاب الذى لا يرى شيئاً يمكن أن تقف أمامه العزيمة الحقة ، والرغبة الصادقة في الانتصار ، هو الذى جعل هذا الشعب يتصف بالصفات العملية أكثر مما يتصف بالصفات الفكرية المتأملة في القرون الأولى من حياته الجديدة . لم يكن الشعب راضياً ، وكان له الحق في ألا يرضى ، بما قد وجد عليه الحال يوم استقر على هذه الأرض ، ولكنه وقد أخذ يجاهد ويجاهد في سبيل الكمال أصابته حمى الجهاد وحمى التطلع إلى أقصى الدرجات في الرفاهية المادية ؛ فإذا هو إلى اليوم ، وقد فاق شعوب الأرض جميعاً في مضمار تيسير سبل المعيشة تفوقاً ظاهراً ، لم يقنع بعد ؛ ففي كل يوم اختراع جديد ، أو كشف عجيب يظهر في العالم الأمريكى هدفه أن يريح الإنسان من

جهد ، بل من جهد ضئيل . وإذا ما تفرغ المرء للجهد الأكبر وسهلت له الوسائل اندفع ، واندفع ، فاذا هذه السمة تقود إلى سمة أوضح وأعم ؛ وهي سمة السرعة المتدفقة . ولم يكن جهد الشعب في سبيل التعمير 'جهداً فردياً ولكنه كان جماعياً منذ نشأ . فالزراعة لا يمكن أن تقوم بجهد فردي ، والمدينة لم يكن لها أن تنشأ من عمل الفرد . وهذه حقيقة بديهية ولكنها قد تغيب عن أذهان الذين ألفوا الحياة في المزارع المستقرة منذ آلاف السنين والمدن الثابتة منذ مئاتها على الأقل . وقد يغيب عن الذهن أيضاً ما يستتبع ذلك من صفات تتصف بها الشعوب التي أنشأت مدنها حديثاً وأقرت مزارعها منذ قريب . أما الشعب الأمريكي فلقد رأى في ظرف قرنين تقريباً آلاف المزارع تنشأ من البراري الموحشة المهجورة أو المسكونة من الحيوان وشبيه الحيوان ، وآلاف من المدن تخطط وتخرج إلى الوجود وقد كانت منذ عشرة أعوام أو أقل مجموعة بيوت ضئيلة متواضعة . ألم تكن مدينة شيكاغو سنة ١٨٣٢ مجرد ميناء هزيل على الحدود الغربية فاذا هي في عمضة عين ، بعد ستة أعوام ، مدينة جبارة تتحدى مدن العالم القديم بضخامة مبانيها واتساع رقعتها وخطر الحركة الاقتصادية والتجارية التي تشرف عليها . لقد جعلتها القاطرات البخارية عاصمة الغرب الأوسط بين عشية وضحاها .

هذه كلها عوامل تضافرت على إذكاء الحيوية الفياضة في هذا الشعب الجديد ، وعلى مداه بأقصى ما يريد من قوة وأقوى ما يريد من عنف ، فاذا هو يسير في أدبه ، وفي الرواية بالذات لأنها أدب الملايين ، على هذا النحو العنيف المملوء حيوية ونشاطاً ، بل بنفس الخطى التي سار بها في حياته على هذه الأرض - ثبت أقدامه بسرعة واستقل في سرعة وعبر عن شخصيته في قوة جبارة متحدياً في ذلك كل مثل قديم أو حديث .

- ٢ -

ومن العجيب حقاً أن تكون هذه الصفات الأولى التي اجتمع حولها الأمريكيون في حياتهم فأوجدت لهم كيانهم ، هي بعينها التي تبعث على وجود الرواية الأمريكية الحققة فتفصلها عن المثل الذي كانت تحتذيه وتستمد حياتها منه في سرعة عنيفة متحدية ، وتضعها في الحياة وضماً مفاجئاً ولكنه ثابت الأقدام . كان جيمز فينيمور كوبر ( Cooper عاش من سنة ١٧٨٩ - إلى سنة ١٨٥١ )

الروائي الأمريكي الأول يقرأ قصة انجليزية تصف حياة الإنجليز الاجتماعية فلم يجد فيها إلا التفاهة والسخف . وكان كوبر معانداً عناد الأمريكيين ، محساً شخصيته القوية إحساسهم . فقال لزوجته : ما هذا السخف؟! إنى أستطيع خيراً من هذا .. فتحدثت الزوج تحدى أهل عصرها الذين كانوا ما يزالون يفرقون بين البريطانيين في سياستهم والبريطانيين في فهم .

واندفع الروائي بروح قاهري الطبيعة وكتب قصته الأولى « الحذر » فاذا هي محاولة مخففة كل الإخفاق؛ إذ خرجت القصة حفنة من الخطأ في كل شيء : في الموضوع ، في الوصف ، في الشخصيات ، بل في الأسلوب واللغة . قال النقاد عنها إنها قصة تبعث على اليأس .

ولكن الروح الأمريكية الفتى يأتي في تاريخ الرواية ليمثل نفس الدور الذي لعبه في تاريخ الحياة على القارة الجديدة ، أيكون الإخفاق فعلاً باعثاً على اليأس . قال صديق لكوبر « لو أن رواية كوبر الأولى نجحت لما كتب غيرها ، ولتأخر بسبب ذلك ظهور الرواية الأمريكية الحقة » . لقد كان النجاح يشجع هذا العبقرى الغنان ولكن الإخفاق ، والإخفاق وحده ، هو الذي كان يلهمه . كل حجر يتعثر به كان يحمله بسحر عجيب إلى درج يصعد عليه . لذلك أخذ فكرة إخراج رواية أمريكية حقة وأحالتها إلى صراع جدى يجب أن ينتصر فيه أو يموت دونه . لقد كان متحدياً أبداً تحدى الأمريكيين للصعاب الذي جعلهم يمجدون المنتصر عليها ويشغفون بمن صنع نفسه - كما يلقبونه . حفظت كوبر صورة له في سن الرابعة عشرة لا تنطق بشيء إلا بالتحدى .

وكان كوبر في هذا الصراع الذي خلقه لنفسه كالمهاجرين الأولين في كل شيء . لقد ظلوا يتدققون إثر كل أزمة أوروبية على هذه الأرض الجديدة ولكنهم في أغلب الأحوال كانوا يصلون وليس معهم شيء يعين على النصر إلا أنفسهم .

دخل كوبر معركة الرواية وكل ما يحمله من ثقافة بضعة أعوام قضاهها في جامعة ييل Yale قبل أن تلفظه وتطرده وهي لا تعلم أنها تطرد أشهر اسم قرن باسمها في تاريخ الأدب . لذلك كثرت الأخبار عن سوء علاقة الروائي بالناشرين وخاصة في روايته الثانية « الجاسوس » . فلقد كانوا يعانون الأمرين في

سبيل نشر رواياته . ذلك أنه كان يكتب بلا نظام ولا ترتيب ؛ يبدأ من وسط الرواية أحياناً وهو لا يعرف ماذا يريد ولا كم يريد قبل أن يتصدى للكتابة . كل ما يعرف هو الموضوع ويهجم على الكتابة هجوماً ويعاند ويكابرحتى يصل إلى إتمام الرواية فاذا هي تحفة خالدة ، أو صورة من صور الإخفاق الذريع .. ولسنا نعرف كاتباً ممتاز بما امتاز به كوبر في هذه الناحية من التفاوت الشديد بين آثاره الأدبية . لقد ظل يخرج الدر والحصى على التوالي دون ترتيب ؛ بل دون أسباب مفسرة ، بل دون إدراك لما يفعل .

ولكنه إن لم يكن قد فعل شيئاً فكفاه أنه خط أول حرف برواية « الجاسوس » في تاريخ الرواية الأمريكية الصميمة . وإذا النجاح يغريه بالسبر في السبيل ، وإذا الرجل الميسر الرزق يحترف الكتابة في زهو المستغنى وعبقرية المؤمن ، بل المملوء إيماناً بعظمته . ويشير حوله عاصفة من المشاجرات والمشاحنات بينه وبين أصحاب الصحف التي أخذت تنشأ لأول مرة في الوطن الجديد . وإذا أحدهم يكتب إليه يريد أن يشركه في إخراج صحيفة فيحدثه أثناء ما كتب عن حجم المجلة وعن الأجر الذي سيدفعه له . فينتقده كوبر أمر انتقاد على عنايته بالكم لا بالكيف في بلد كما قد قال : « يشكو أكثر ما يشكو من الإسفاف والابتذال » .

هذا الشعور الجديد من الأمريكيين ؛ شعورهم بأن حياتهم العملية المتدفقة النشاط قد دفعتهم إلى إهمال التعليم والفنون هو الذي مهد إلى الصحوة التي عاصر تباشيرها كوبر . وهو الذي دفعهم إلى أن يندبوا المثل الإنجليزية في الفن ؛ لأنها لا يمكن أن تكون هي العلاج لما أحس شباب الشعراء والمؤلفين عامة من هذا الإسفاف الذي انحدرت إليه حياة الأمريكيين الفكرية . لقد نشأت الرواية فيهم كما ينشأ الطفل يريد أن يتكلم فلا يجد أمامه إلا الوالدين مثلاً أعلى ؛ فيحاول أن ينطق مثلهم . لقد قلد الروائيون الأمريكيون قبل كوبر الرواية الإنجليزية تقليداً أعمى حتى ليعترف بعضهم بهذا في غير غضاضة ، بل في فخر أحياناً .

وكان الروائي تشارلز بروكدن براون مصدوراً يعاني آلام مرض لم يمهله في الحياة أكثر من تسعة وثلاثين عاماً ، ومع ذلك فلقد خرجت روايته أرثر

مرفن Arthur Mervyn عن وباء الحمى الصفراء في فيلادلفيا صورة مقلدة تقليدياً واضحاً لكتاب دفو Defoe « ذكريات عام الوباء » .

ولكن القدر ادخر هذا الفضل للروائي الأول كوبر ، ولعل له في ذلك حكماً من أبرزها أن الروائي العليل لم يكن ليستطيع أن يمثل روح الأمريكيين بمثل ما يمكن أن تمثله شخصية جبارة عنيدة متحدية . يقول بلزالك عن كوبر : « لو أن هذه الروائي استطاع أن يرسم شخصياته بنفس القوة والحيوية التي رسم بها ظواهر الطبيعة واندفاع الحياة في جنباتها لقال آخر كلمة يمكن أن تقال في فننا - فن الرواية . لقد غفرت هذه الحيوية المتدفقة الحوادث لكوبر كل غلطاته حتى هذا الأسلوب الرديء الذي شككت منه المطابع قبل أن يشكو القراء . ولكن القدر يعامل الروائي بمثل ما عامله هو به فيتخذ له من كل عثرة سبباً من أسباب الرقي ، وإذا هذا الأسلوب بالذات هو الذي يجعل ترجمة كوبر إلى اللغات الأخرى سهلة يسيرة فيذيع صيته وراء البحار حتى يصل إلى الشرق ؛ فيحدثنا بعض السائحين عن رؤية رواياته معروضة في بعض مكاتب تركيا ، فذاع بذلك صيت الرواية الأمريكية خارج الحدود .

وتتكرر أحداث حياة كوبر في حياة الرواية الأمريكية وكأنما قد طبع المستقبل ، مستقبل الرواية أيضاً ، بطابعه الجبار . لقد رحل كوبر إلى البحار ووصف بعض رحلاته فاذا هو يفتح باباً عريضاً من أبواب الرواية الأمريكية حول مغامرات البحار . لقد كانت رحلات البحار وحروب الأساطيل إبان دفاع أمريكا عن سيادتها البحرية بعد أن نالت سيادتها الأرضية في الولايات المتحدة مغامرات تغرى بالقصص . وأما رحلات المحيط الهادى بالذات - المملوءة بالمغامرات العنيفة والمخاطرات الشاذة في سبيل التجارة وفي سبيل تعمير الوطن الجديد - فلقد كانت أكثر تفتيحاً للذهن ، وشحذاً للقرائح والخيال ، وأقوى إغراء بأن تقص وتقص . وروح المغامرة تملأ الأدب الأمريكي كله ، وبخاصة الرواية . والكتاب أمثال كوبر الذين لا يستطيعون أن يحسوا حياة المدن أو حياة أهلهم فيها كثيرون . وكان كوبر كلما أراد أن يرسم مجتمعه يخفق ، ولكنه إذا أراد أن يرسم الشخصيات العجيبة المفعمة بالغريب المملوء بالشاذ غير المألوف

حلقت عالياً في سماء الفن . إنه لا يستطيع أن يصف جو بلاده ولكنه إذا رحل في البحار مثلاً وتنسم نسيمها العنيف الجبار اندفع في الفضاء الواسع العريض واستطاع أن يسمو إلى سماء العبقرية حيث ينحط قلمه آثاره الخالدة . هكذا كان كوبر ، وكذلك كان ملقل من بعده . بل إننا لا نكاد نجد في تلك الفترة روائياً لم يغامر إما في البحار ، وإما في أرض الذهب ، وإما فيما وراء البحار . وشغف الأمريكيين بالشاذ والعجيب شغف غير عادى مازال إلى اليوم سمة واضحة من سمات شخصيتهم ، ولعل هذه الروايات الخالدة هي التي نمت فيهم هذا الميل وقوت فيهم ذلك الشغف .

وعاشر كوبر قوماً عجيبين حول الحدود المتقهقرة أبداً غربي وطنه ، ورأى الهنود وحرب الحدود ، ورأى في كل هذا طرقة تسترعى الأنظار ، وعجباً يستحق الوصف ، فوصفهم في أكثر من رواية ، أشهرها روايته عن « آخر بني موهيكان » .

#### The Last of the Mohicans.

وبذلك يكون كوبر قد طرق أهم الموضوعات التي ظلت الرواية الأمريكية تدور حولها في نصف القرن الأول من حياتها ؛ فألف في مغامرات البحار وأحداث الحدود وأهلها ورحلات أوروبا وما قد طرأ على أهلها من تغيرات وما يضطرب فيها من حياة . حتى ليقال إنه لم يترك موضوعاً إلا كتب فيه . حتى هذا الموضوع الذي كان ما زال يحاول أن يتخذ لنفسه شكلاً في أيامه ؛ وهو وصف إحساس الجيل القديم أمام الجيل الحديث وما قد طرأ عليه من تغيرات — كما فعل في رواية « الرائدتين » . بل إنه لا يكاد يدع موضوعاً في الحياة من حوله لم يتعرض له فهذه الطبقة الجديدة الحديثة الغنى من الصناعة التي أخذت تجتاح المدن ولا أصل لها من تربية أو ثقافة ، كانت تسخط الناس عليها وتجعلهم يحقدون . ولكنها في الوقت نفسه كانت تضحك أيضاً من تصور لها لقيم الحياة وطريقة تفكيرها فيما يجب أن تعيش في ظلها من آراء . وهذا كوبر يؤولف رواية « منديل بألف دولار » كما ألف بتلر من بعده « ليس عندهما ترتديه » للسخرية من هؤلاء ، وخاصة سكان نيويورك منهم .

لقد وقف كوبر بباب الخلود مثقلاً بجهود ثلاثين عاماً فاذا هو يستوقف لأنه يحمل أكثر مما قد صرح له به من متاع ، ولم يسمح له بالدخول إلا بقلة قليلة

مما كان يحمل . ولعل أهم ما قد صرح بدخوله من باب الخلود مجموعة رواياته الخمس المعروفة باسم « جورب من الجلد » التي ترجمت إلى أكثر لغات أوروبا .

— ٣ —

هكذا وضع كوبر الأساس الأول للرواية الأمريكية الأصلية ثابتاً شامخاً . وكان من الطبيعي أن يستمر الذين جاءوا من بعده في نفس التيار لولا أنه من الطبيعي أيضاً أن يقف بعضهم الوقفة التي غيرت الكثير في هذا الفن . إن الحياة الأمريكية تصطبغ بالموضوعات وتزخر بالمناظر المتغيرة وتكاد تنفجر من كثرة الانفعالات العنيفة وتنوعها . ولكن ما هو الفن في تصوير كل هذا ؟ أتكون الرواية وصفاً للواقع كما هو ؟ أم أنها فن له أصوله وقواعده ؟ وبدأ يظهر في الأفق روائيون يعنون بالرواية من حيث هي فن . ولكن تبشيرهم بهذا المبدأ الجديد كان يجب أن يستند إلى مثل تبين ما يرون من أصول فنية . ولم يكن من الممكن أن يقف تيار التأليف الجارف في انتظار تكوين الطبقة الأولى من الروائيين أصحاب الصنعة والتجويد . لذلك ألف ملقل وسعد بإعجاب القراء ، وصعد سلم الشهرة لاهتاً ، ونزله متعباً ، كالحجر يسقط من على الجبل . في نفس الوقت الذي كان هوثورن مازال يعكف في قرية صغيرة لا تبعد عن بوسطن حيث عاش ملقل إلا ستة أميال يمرن نفسه تمريناً طويلاً شاقاً على كتابة القصة وإتقان أسلوب الرواية . لقد ظل بضعة عشر عاماً يكتب ويمحو ، ويثبت ويرفع طوال هذه الأعوام قبل أن يخرج إلى القراء روايته الأولى في سن السادسة والأربعين « البيت ذي القباب السبع » .

أما هـرمن ملقل (Hermann Melville) الذي عاش من سنة ١٨١٩ إلى سنة ١٨٩١) فلقد كان في تاريخ الرواية الأمريكية حادثاً مشيراً فذاً . ظهر كالشهاب الثاقب يهـر الناس بضوئه الذي غمر السماء ثم سقط إلى الأرض فجأة بعد فترة وجيزة ، فاذا هو لا نار ولا نور ! لقد شب في بيت ظلته فرنسية بظلال وطنها الذي سار في المدنية أشواطاً منذ قرون . وإذا رفيق صباه صبي في مثل سنه نصف فرنسي . وبدأ حياته عاملاً على سفينة تجارية فتعلق قلبه بحب البحار وهوى مغامراتها

فاذا هو السندباد الغربي . وأخذ يلقي نفسه إلقاء على كل سفينة طويلة الرحلة في البحار، وخاصة السفن التجارية التي كانت تجتاز المحيط الهادى حاملة البضائع أو خارجه لصيد الحيتان . فلقد كان زيتها تجارة رابحة في هذا الوطن الحديد . وإذا مغامرات الصيد في البحار مغامرات شيقة عاصفة الأحداث مثيرة الأخبار . وامتلت الولايات الجديدة بأخبار عن مغامرات الصائدين وقصصهم . فلقد رسم الصائدون العائنون صوراً يختلط فيها الخيال بالواقع العجيب اختلاطاً فذاً ، فأصبحت معروفة تتداولها الألسن ويلتذ بسماعها الناس .

ولم تكن مغامرات ملقل تمتاز بشيء خاص من شذوذ أو عجب ، ولكنها امتازت قبل كل شيء بحوية متدفقة جارفة من شخصية صاحبها . فر مرة من قبطان شمس فعاش على جزيرة وسط المحيط عامين حتى انتشلته سفينة عائدة إلى نيويورك من امتراليا . فلما عاد كتب روايته الأولى « تيبي Typee » فاذا رواجها يفوق أشمل ما كان يتصور الأمريكيون من معنى الرواج . ولم يقرأها عدد لم يسبق له مثيل في عالم الأدب فحسب ، وإنما قرأها الكتاب والمؤلفون والشعراء . وأخذ كل منهم يعلق عليها ويكتب عنها ، بل إن منهم من كان يفخر بأنه قرأها مرات . وتمتلىء نفس الكاتب حيوية من أقوى ما يمكن أن تملأ بها النفوس ، حيوية فريدة جعلته يصيح إنه يود لو أن بركان فيزوفوس استحال إلى مداد ليكتب كل هذا الذي يجيش به صدره . قال في بعض رسائله الخاصة : « إنى محتاج إلى خمسين شاباً يكتبون ويكتبون كل هذا الذي أريد أن أملى » .

وكانت الصحوة الفنية قد أخذت تقوى في الولايات المتحدة وفي المدن الكبيرة خاصة؛ في نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا، وإذا جماعة من الشعراء أمثال امرسن ، بعد أن استقل الشعر الأمريكى بشخصيته ، تسمى نفسها جماعة المتسامين إلى المثل العليا — تنشر تعاليمها التي تمجد المثل الروحية وتدعو إليها . « إن أسمى ما فى الإنسان روحه ، وإن أسمى ما فى الحياة مثلها العليا . فلتكن هذه المثل متسامية أبداً تصعد وتصعد أبداً نحو مشارف أعلى وأسمى . » وإذا روح جديد يملأ نفس الشعب ؛ روح يشع فيه الإيمان بالنفس ، والاكبار لما قد قامت به ، والأمل العريض فيما يمكن أن تقوم به . إن الأمريكيين شعب الله المختار فى العالم الحديث

كما كان اليهود شعب الله المختار في العهد القديم . « لم تعد العظمة الحديثة » كما يقول ملقل في روايته « موني دك » - « عظمة الملك والصبوحان ، إن العظمة عظمة الشعب المتدفقة في كل يوم . إنها عظمة العامل العادي يدفع آله ، والزارع البسيط يحصد زرعه . إنها عظمة الديمقراطية التي لا تعرف الملل ولا الكلال » .

وقامت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب وكانت مشكلة العبيد سبباً من أسبابها . وثار المكسيك وانتصر الشماليون في كل هذا فاذا الإحساس بالقوة يزداد ، والتمسك بالديمقراطية والمساواة ، أي المثل العليا يقوى . ولما اكتشفت مناجم الذهب في كاليفورنيا وأخذ الأمريكيون يتدفقون زرافات على الغرب نحو أرض الله الموعودة أصابت الحياة كلها نشوة من الانتعاش وفورة من الحماسة والقوة .

وملقل أصدق من يمثل هذه النشوة الجديدة وذلك التحمس القوي للمثالية الروحية ، وروايته « موني دك » - وهو اسم حوت أطلقه الصائدون على حوت جبار عنيد أعياهم صيده في البحار الجنوبية - تعتبر من أشهر الروايات الأمريكية على الإطلاق ، ومن النقاد من يعدها الرواية الأولى باللغة الإنجليزية في القرن التاسع عشر كله . يقول فيها على لسان إهاب البطل : « أيها الإنسان ، اجعل الحوت مثلك الأعلى في الحياة وأمطره إعجاباً بعد إعجاب . ترى أنتستطيع أن تعيش مثله يجرى دمك ساخناً وسط الثلوج ؟ أو تعيش مثله في الحياة وكأنك لست منها ؟ كن أيها الإنسان منتعشاً وسط حر خط الاستواء ، دافئاً في عمرة ثلوج القطب الشمالي . كن كقبة القديس بطرس في جلالها . بل كن كهذا الحوت ، عش في فصول العام كلها ولك من جسمك حرارة ذاتية لا تتغير بتغيرها » .

وإهاب - من شخصيات التوراة - هو ابن ومور ملك من ملوك إسرائيل في العهد القديم . ومن النقاد من يرجع رمزية القصة إلى قصة يونس والحوت التي رويت على لسان السيد المسيح في العهد الجديد من الإنجيل . وما كاد ملقل يصور هذه الصحوة الروحية التي أشعلها الشعراء حتى أصبحت هي الأخرى من مقومات الشخصية الأمريكية الجديدة ؛ شخصية المهاجرين إلى أروشليم الحديثة بحاربون كما حارب البطل إهاب القدر المشوم .

ولكن الشهاب يخبو فجأة وإذا ملقل يحس أنه استنفد كل قواه . ولما حاول

أن يكتب رواية بعد روايته الثالثة « ماردى » سماها « ثقة الإنسان » رأى نفسه ينزل إلى الحضيض فلم يحاول بعد هذا الإخفاق شيئاً وإنما ظل يحيا حياته محسباً أن الزمان قد ولى وأن المجد قد أدبر .

لم يكن ملقلاً يحس نفسه إلا وسط البحار غارقاً في المغامرات وسط العواصف والأهوال . أما في وطنه فلم يكن فيه بالنسبة إليه ما يثير . ولم يكن من الذين يغشون المجالس ، ولم تعرف له صداقات أدبية إلا بضعة أعوام نحو الثلاثة مع هوثورن ، وصلة أقصر وأضعف مع الشاعر وبيمان . ولم يكن أيضاً ممن يدرسون النظريات النقدية حتى تسعفه الصنعة لتنعش جذور العبقرية وتحببها من جديد . لم يكن يعرف في الأدب إلا نفسه وقد ثارت وانفعلت بالغامض العجيب ، لذلك لم يحاول أن يكتب . وإنما عاش كالبطل الحربي الذي خاض آخر معاركه . لم يعد أمامه إلا أن يعيش على مجد قديم سرعان ما ينسى . لقد خبت عبقرته قبل الأوان ، أو كما يقول ناقد من ناقديه : « حتى قبل الخمسة عشر عاماً التي قدرها سانت بوف عمراً للعبقرية في الإنسان » .

ويشاء خالقه أن يعيش ليشهد الحركة الفنية التي ألهمتها « موبى دك » الروح والقوة تصل إلى ذروتها . وليشهد الإحساس بالقوة المنتصرة على كل شيء حتى كادت تفنى المستحيل من على وجه الأرض ؛ تصل إلى أوجها . وتفجر كل هذا شعراً وقصصاً وأدباً تمتلئ به المدن حتى تزخر بحياة فنية لم يكن للأمريكيين بها عهد في الموسيقى ، والمسرح ، والفن عامة .

ففي هذا العصر يظهر أول عازف أمريكي تصبح له شهرة عالمية « لوى . مورو جوتوتشوك » في نيويورك ، وتبدأ في هذه المدينة بالذات الخطوات الأولى لدراسة الفنون ونشر الثقافة التي تعين على ازدهارها . ويرحل طلبة الرسم والموسيقى إلى أوروبا إلى إيطاليا وإلى فرنسا بالذات : إلى باريس عاصمة الفن وبوتقة الفن والعلوم . وتقلد نيويورك باريس في كل شيء تريد أن تتزعم الفن في الغرب . تقلدها حتى في إيجاد طبقة الفنانين البوهيميين الذين انتشروا في باريس إذ ذلك ، فلم يكن لوجود هذا الصنف من الفنانين من داع في نيويورك إلا تقليد باريس . لقد رعت الأرستقراطية الفن والفنانين في باريس فلما ورثتها على عرش المال

طبقة البرجوازية التي تخلت عن الفن وعن تلك الأهداف الفنية التي كانت الأرستقراطية قد أحالتها إلى أهدافها اذبالفنانين يهيمنون ولاعمل لهم وهم يحسون أنهم بلاحام ولا راع . ولكن الفنانين في نيويورك رعوا أنفسهم وعاشوا على تشجيع الشعب منذ أول ظهورهم ؛ فلم تعرف نيويورك أرستقراطية ترعى الفنانين لتعرف برجوازية تخلت عنهم .

ولكن حب الشعب الفرنسي بالذات - دون سائر شعوب أوروبا - كان له أكبر الآثار في فن الرواية . ذلك أن الأمريكيين تلاقوا مع الشعب الفرنسي في الدفاع عن حرية الإنسان . ألم يذهب إليهم لاقييت ليحارب معهم في سبيل الحرية ؟ أو لم يأتوا إلى فرنسا في الحرب العالمية الأولى وهم محسون أنهم آتون لرد الدين فكانوا ينشدون : « ها نحن أولاء بالاقبيت » . وبين هذه الجيوش الفرنسية في أمريكا والأمريكية في فرنسا نشأت علاقات روحية أثرت في تاريخ الرواية . فليس عبثاً أن يقيم ناقد الرواية الأمريكية الأول أكثر حياته في فرنسا ، وليس عبثاً أن تصقل الرواية الأمريكية إبان الحرب في باريس بالذات . كذلك ليس عبثاً أن يكون الروائيون الفرنسيون مثلاً من أبرز أمثلة الدراسة وعوناً من أقرب ما يمكن أن يأتي العون ليسعف النقاد الأمريكيين في تكوين نظرياتهم الخاصة في فن نقد الرواية .

#### — ٤ —

وفي هذه الهدأة التي أحسها القراء بعد أن خبت عبقرية ملقل ظهر في الأفق روائي جديد هو ناثانيل هوثورن (Hawthorne) الذي عاش من سنة ١٨٠٤ إلى سنة ١٨٦٤) والذي يعد بحق مؤسس الفن الروائي في أمريكا . لقد عكف على إتقان وسائل الفن قبل أن يهجم على الكتابة . فلقد قويت في عصره هذه النزعة التي لازمت الرواية الأمريكية منذ نشأتها إلى اليوم على اختلاف في قوتها على مر الزمن ؛ وهي أنها تنجح بين حين وحين لسبب أو لآخر إلى أن تكون أشبه بتقرير صحفي منها بفن خالده . فكثيرون هم الروائيون الذين نشأوا في كنف الصحف الكبرى وعرفهم القراء أول ما عرفوهم مراسلين يكتبون إلى صحفهم تقارير عن رحلاتهم وما يصادفون فيها من عجيب مشوق .

فتصدى هوثورن لمهمة إرساء قواعد الفن الروائي بعيداً عن تقارير الصحافة . ولقد وهبه الله الملكات اللازمة والاستعداد المطلوب لمثل هذا العمل العظيم . لقد درس في الجامعة حتى أتم دراسته ، بينما كان ملقلاً يقول : مركب صيد الحيتان جامعي . وبينما كان كوبر يفخر بأن يبيل طردته في أول عهده بها . ثم ذهب هوثورن إلى قريته وعكف وحيداً على التمرين . لم يخرج أول كتبه إلا بعد اثني عشر عاماً ، وكان مجموعة قصص قصيرة ثبت بها لهذا الفن أول قدم ثم عكف من جديد على كتابة أولى رواياته « البيت ذي القباب السبع House of Seven Gables »

وتكاثفت الظروف من حوله واجتمعت العوامل من نفسه كلها لتساعد على هذه الوحدة وتشعل الرغبة في الامتياز والتفوق ؛ ذلك أنه انحدر من أسرة كان لها في يوم من الأيام مركزها المالي والاجتماعي كسائر أسر البحارين في بلده ، ولكن قيمة بلده « سالم » تتلاشى من الناحية التجارية بتغير مركزها الملاحى الممتاز ، فاذا بضعة بيوت مما بنى البحارون الذين أثروا من التجارة مع الصين هي الشاهد الوحيد على مجد قديم قد زال . ولم ينحدر مقام الأسرة فحسب ولكن عائلها يموت ويترك أيتماً ويتامى . فيعكف اليتيم في فقره على نفسه المرهقة فاذا المثل الدينية الصارمة التي ربي في كنفها تتلقى فورات هذا السخط والحزن الذي أحس به ، ولكنه في الوقت نفسه يحس نحو هذه المثل بالألفة لأنه نشأ في ظلها وتشكل عقله بقوالها إلى حد ما .

وتفحص الحياة وعكف على درس الفن مثله هي المثل الإنجليزية والفرنسية المعروفة ، وحافزه هو هذا الاتصال بجماعة من الشعراء الروحانيين أو المتسامين إلى المثل العليا . لقد تزوج أخت سيدة اتخذ هؤلاء الشعراء من مكتبها مجعاً لهم ، فأصابته من هذه الصلة نفحة أشعلت ثورته من جديد على التزمّت الديني الذي ربي في كنفه . لقد نشأ هوثورن وسط مهاجري بوسطن وماستشوستس الذين عرفوا بأنهم فروا بدينهم من أوروبا . ولكن الزمان يسير بهم وإذا المثل الدينية التي هاجروا من أجلها ترمم في أفق جديد ؛ عنوانه التسامح وجوهه الاعتراف بالضعف . أما هوثورن فقد عكس هذا التزمّت والحرب عليه في كل ما قد ألف تقريباً ، ولكن أبطاله مهزومون أبدأً في هذه الحرب . وأما امرسون الشاعر فهو

بصور أبطالاً متصربين آخر الأمر في نفس هذه الحرب. كانت طبيعة هوثورن ضعيفة رقيقة تخاف الجماهير ولا تكاد تحس نفسها إلا في الوحدة والانفراد .

ثم أخرج هوثورن أشهر ما قد ألف رواية « الحرف الأحمر القاني Scarlet Letter » ممثلة لكل مزاياه ، مظهرة لكل ما رسم للفن الروائي من مثل أعلى . فيها الرمز الذي يهواه . فلقد حمل كل شيء في الحياة رموزاً وهو لا يكاد يعيش إلا وسط الخيالات ؛ ألم يحذف من اسمه حرفاً ليبدل بذلك على انحدار مجد الأسرة . وفيها الحرب على التزمت الديني والموازن الاجتماعية الحاططة المتفرعة عنها التي يهزم فيها الأبطال آخر الأمر بعد أن يكونوا قد شغفوا القارئ بحبهم والعطف عليهم . وفيها الكتابة المظلمة التي خيمت على حياته فسودتها سواد هذا الفحم الذي عمل في قياسه في الجمارك . وفيها قبل كل هذا العناية الفائقة بالأسلوب . كل جملة قد وزنت وقيست وقدر لها مكانها قبل أن توضع في الرواية ؛ ولكن فيها أيضاً عيب هوثورن الأكبر وهو الحمود الذي يشل حركة الشخصيات والحوادث . كل شيء صامت لا يكاد يتحرك إلا نفس البطلة وضمير البطل . نفس المرأة التي زلت فقسا المجتمع عليها ونبذها ، وضمير الرجل الذي شاركها زلتها ، بل دفعها إليها وقد تغاضى عنه المجتمع لزيف موازينه فلم يناقشه حساباً . ولكن الضمير يتحرك ويعمل بعد طول الوقوف والحمود حركة تكون هي الذروة التي تنتهي عندها الرواية .

والقارئ لروايات هوثورن يشير فعلاً هذا الحمود فلا يعجب مما قد قاد إليه عند شباب المؤلفين من ثورة على الأسلوب ، وسخط على الصنعة ، ومقاومة عنيفة للعناية بالشكل . يقول « نوريس » في فجر القرن العشرين معرباً عن المذهب الجديد : « إننا نريد من الرواية حياة ، ولا نريد منها أسلوباً » . ولكن فضل هوثورن الأكبر في أنه بنى اللبنة الأولى في العناية بالأسلوب التي تطورت فيما بعد فأوجدت المذاهب النقدية في الفن الروائي . وإن يكن محصول هوثورن في الكتابة قليلاً فماذاك إلا لأنه بدأ في السادسة والأربعين تأليفه واستمر في بطاء ودقة وحذر لا يخرج إلا ما يرضى عنه . ولولا رحلته إلى أوروبا - تلك الرحلة التقليدية التي قام بها كل روائي تقريباً من بعد كوبر - لقل محصوله عن ذلك ،

ولكن هذه القلة كانت طبيعية لمن أقام نفسه لأول مرة يدافع عن الصناعة الفنية والإخراج الجميل في عالم ألف التأليف السريع المثير .

— ٥ —

وظهرت أيام هوثورن رواية وسط هذا الخضم الواسع من التأليف لفتت الأنظار إليها وكانت كالنجم الخاطف في حياة مؤلفها فلم تؤلف مثلها قط ؛ وهي رواية «كوخ العم توم» للروائية هاريت بيتشرستوى *Hariette Beecher Stowe* ولم تكن الكاتبة تريد بما كتبت أن تؤلف في الفن الروائي وإنما هدفها كان كتابة تقرير عن واقع تخدم به قضية العبيد في ولايتها . فلما أغراها النجاح أخذت تكتب عن وطنها فرجينيا . وأحدثت الرواية دويماً عظيماً في الحياة الاجتماعية عكس أثره على الحياة الفنية فقدرت الرواية بأكثر مما تستحق . ومهما تكن قيمة الرواية من الناحية الفنية فلقد أحدثت آثاراً غير مباشرة كانت أهم من تلك القيمة الفنية في تاريخ الرواية . فلقد برزت لأول مرة تباشير هذا الطابع الدامغ ؛ طابع التقارير الصحفية الذي شكته منه الرواية الأمريكية وما زالت تشكو، وما كان على مارك توين من بعدها إلا أن يقوى هذا الطابع ليخلق له صفته الدامغة . ولما راجت الرواية بسبب موضوعها راج تأليف مؤلفها فاجتاحت الولايات كلها موجة من التقليد فاذا روائيون كثيرون يؤلفون هم أيضاً عن ولاياتهم ، حتى أخذت كل ولاية تظهر بكل ألوانها في الأدب الروائي . وآخر ما أثرت به هذه الرواية هو أن مؤلفها كانت امرأة ففتحت بنجاحها الباب للمؤلفات في الرواية فاذا هن يقفن على قدم المساواة مع الرجال في هذا المضمار من حيث جودة التأليف وكثرته وقوة أثره في المجتمع والفن .

— ٦ —

إن الشعب الأمريكي ما زال إلى اليوم يهفو إلى العجيب والغريب أكثر من سائر شعوب الأرض ، وقد حدثت في تاريخه أحداث جسام تسترعى فعلاً العجب وتحفز على الرغبة في المزيد من أخباره . وكان من هذه الأحداث كشف مناجم الذهب في كاليفورنيا . فما كادت تكشف حتى انبهر بأخبارها الناس

وأخذوا يرحلون زرافات نحو الغرب . والذي يعيننا من كل هذا أن الجمهور أخذ يتهافت على تلك الأخبار فأرسلت الصحف مراسليها ليشبعوا نهم القراء ، وكان أن أرسلت صحيفة « الإتربرايز » الشاب الناشئ مارك توين ، أو صمويل لانجهورن كليمنز Mark Twain ( عاش من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٩١٠ ) . ولم تأخذ الجريدة هذا الشاب من وراء خشب تصنيف الحروف لتجعل منه مراسلها في أهم بقعة يتطلع إلى أخبارها القراء ، ولكن الشاب كان ذا صيت في عالم التأليف ؛ فقد ألف روايته الأولى « تمهيد صعابها » فلفتت إليه الأنظار . وفي هذه الرواية قصص على قرائه تجارب عامل من عمال المناجم ؛ مناجم الذهب ، وكانت هذه التجارب تجاربه هو الخاصة . وكان مارك توين شخصية فذة ما كاد يكتب روايته الأولى حتى غزا سوق التأليف في أمريكا ، بل في أوروبا أيضاً . ذلك أنه يمثل هذا الروح الأمريكي الجديد أحسن تمثيل . لم يتعلم في جامعة ، ولم يأخذ نفسه بأى إعداد علمي أو ثقافي . عاش صباه على ضفاف نهر المسيسيبي ، وكان أكبر أمله أن يصبح قبطان مركب يملكها على هذا النهر . وأخذ يتعلم النهر ، كما يعتبر هو . ولكن مجد النهر يزول بسبب الحرب وتقدم القاطرات البخارية فاذا منظر النهر يثير في نفسه الذكريات والعبر . ويندفع الشاب في نغمات الحياة يتلقى أحداثها في ابتسام وكل زاده معرفة بالنهر وأهله ، ومعرفة بالحياة جاءتته من خلل ما أحس نحو النهر من ألم ، ومرانة على صف الحروف ؛ فقد عمل هذا العمل في بعض الصحف المحلية . ولم يثره إلا هذا الذي أثار هوثورن من قبل — هذه التربية المتزمتة التي تسحب ظلالها حتى على الأطفال فاذا قصصهم كله علم وأدب وحكم وعظات . فطفولته الفلقة التي واجهت الحياة في صراحة وتجرد من كل سلاح خير ألف مرة من طفولة محمية تتعلم الحياة من خلل حروف تكتب بالمداد . وألف للصبية روايات تقص عليهم مغامراته ، وتصف أحلامه وخياله ، وترسم صوراً للأحياء الذين لاقاهم فأثاروا إعجابه ، والأحوال التي صادفها فأثارت حب استطلاعهم . وخرجت روايتنا « نوم سوير » و « هكلبري فن » فاذا كل طفل ما يكاد يعرف كيف يقرأ حتى يقرأ سيرة البطلين فتدخل لذة الشيق والعجيب طفولته لتنيرها بأزهي الألوان الخلابية ، وأغراه النصر وكتب عن « السذج يسبحون » فسخر من قيم كثيرة علمته الحياة تفاهتها ، وإذا هو إمام السخرية في الرواية

الأمريكية ، بل أمير السخرية فيما وراء البحار . يقول إن أوقع ما يمكن أن تزيّف به عادة أو تقليداً هو أن تضحك الناس مما يضحك فعلاً فيه . وكان دستورُه أن الحياة ليست جهاداً مستمراً ، ولا هي تهذيب لا ينقطع ، وإنما للحياة بهجتها ، ولها ملاذها ومسراتها ، وأبهج ما فيها رحلات ومغامرات ، وأقوم ما فيها نفس إنسانية واحدة تترأى من خلل صور تختلف .

ولما عكف توين في فلورنسا ليكتب كتابه عن جان دارك اضطر - كما قال لزوجته - أن يصدر الكتاب الذي هيمن موضوعه على عقله أربعة عشر عاماً تحت اسم مستعار ؛ لأن الجمهور لا يمكن أن يأخذ عنه كتاباً مأخذ الجلد أو الدرس . وصور توين الغرب الأوسط الأمريكي وحياة النهر العظيم ورحلاته المتكررة إلى أوروبا ، ولكنه صور أكثر ما صور النفس الطليقة التي تلقى الحياة دون درع أو سلاح ، مستعدة لأن تنعم بكل ما فيها وأن تبحث عن مزيد من النعيم في الرحلة والتنقل والسعي وراء تجارب جديدة . ولما حاولت الحياة أن تؤلمه لم تفلح ، فلقد أفلس مراراً فكان يقابل الإفلاس بكتاب جديد أو برحلة إلى أوروبا كيفما تكون . لقد كان له اسم يزيل عنه الإفلاس فقد أصبح أوسع الأمريكيين جميعاً شهرة في الخارج ، وأكثرهم قراء في وطنه ، وأحبهم إلى قلوب القراء في كل صقع . لقد مثل الديمقراطية الحديثة أقوى تمثيل ؛ فهو يزدرى السلطان والمثل العليا ، بل المثل الدنيا أيضاً فاذا حماة العلوم بمجدونه ؛ فأكسفورد تمنحه دكتوراه فخريّة ، وكذلك جامعة ييل . ذلك أنه في سخريته القوية يصور قبساً من نور الحياة وصفحة من حقيقتها لم يكن إلا لعبقري أن يصورها ، فقدر العلماء هذه اللمسات التي تظهر من الزيف وتجعل المثل العليا حقيقة بأن يدافع عنها .

وطبعت روايات مارك توين بطابع الواقعية الطبيعية الذي ساد التأليف الروائي في أمريكا أواخر القرن الماضي وما زالت آثاره محسنة إلى اليوم . لقد كان صحفياً يريد أن يقص مغامراته وتجاربه التي لا حصر لها .

ثم آن الأوان بعد هذا التراث في الرواية الواقعية التقريرية أن يقف التأليف الأمريكي فترة ليتبين خطاه ، وكان هذا على يد هنري جيمز .

## الرواية الأمريكية في هذا القرن

— ١ —

وقف هنرى جيمز Henry James في كتابة مقدمة لمجموعة من رواياته أمام فن الرواية يسائل نفسه : ماذا هو ؟ وماذا يجب أن يكون ؟ وإذا هو — لطول إقامته في أوروبا وكثرة ما قرأ من نقد حول الرواية الفرنسية والإنجليزية — يرى الطريق واضحاً وإن يكن شاقاً ، فيخرج لأول مرة في أمريكا كتاباً في الفن الروائي ثابت الأقدام قوى النظرية . وأثر جيمز وكتابه في طائفة من الروائيين الممتازين من أهل عصره ، وامتد أثر كتابيه : « فن الرواية » ، و« ملاحظات عن الروائيين » إلى اليوم .

وكان أصحاب المذهب الطبيعي — أى الواقعى — قبل جيمز قد بدأوا يحسون وطأة الأسلوب فيما يكتبه بعض من تأثروا بإتقان الأسلوب الروائي في إنجلترا ودعوة هوثورن في أمريكا : كان أصحاب المذهب الطبيعي ، ومن أشهرهم فرانك نورس ، يرددون : إننا نريد حياة ولا نريد أسلوباً .

وخضعت الرواية الأمريكية لأثر الدقة في تصوير الواقع والأمانة في نقله كما هو لزم من طويل ، حتى أصبح المزاج الفنى الأمريكى في الرواية هو النقل الأمين للواقع . وجاء هنرى جيمز ليقف موقف الرائد الأول ورأس الطريق الصحيح لطائفة من الروائيين ازدحمت بهم السوق .

يقول جيمز : إن الحياة فضاء واسع مضيق ، يقف الروائي وسطه لينتخب ما يمكن أن يفسر به الحياة ويهدى به السبيل ؛ إن مادة الروائي ملزمة ولاشك ، وقيمة المستندات لا تنكر ، ولكن إرادة الكاتب وتصرفه في هذه المواد هما بلا شك الفن الروائي الحق . يجب على الروائي أن يخضع مواده لفنّه وألا يكون لها عبداً مطيعاً همّه النقل الأمين .

وعلى ذلك لا بد للروائي من أن تكون له خطة وأن يكون له أسلوب ، وليس معنى الأسلوب ألفاظاً وجملاً ، وإنما الأسلوب طريقة بعينها في الإخراج . هي المنهج الذي يسير عليه المؤلف حتى يخرج الرواية إلى الوجود . أما شخصيات الرواية فهم في رأي جيمز ليسوا إلا المواقف التي يوصفون فيها ، وما المواقف إلا الشخصيات التي تلونها ، ولا يمكن الفصل بين موقف بعينه في القصة وبين الشخصية التي تقف هذا الموقف . يقول : « لا أستطيع أن أرى موقفاً في قصة لا يعتمد في إثارة الاهتمام به على طبيعة الأشخاص التي تقفه وتنصرف فيه » . إن الإحساس والعمل في القصة شيء واحد ؛ فالعمل يتكيف بما أملاه من إحساس من ناحية وبما يفكر فيه الإنسان من ناحية أخرى ؛ وما هذا الذي يحسه المرء إلا تاريخ ما يعمله من عمل وصفة ما يقدم عليه من فعل ، والمناظر العظيمة الجبارة إن هي إلا أضواء على الشخصية .

لقد فتح جيمز بذلك باباً من أبواب المناقشة في فن الرواية ولكنه لم يكف بهذا وإنما نادى بشيء جديد هو في نظره أهم شيء : ما الدافع الذي يدفع الروائي إلى أن يكتب أصلاً ؟ إنه لا يؤولف مجرد أن يقول ويقص ، وإنما هو يقصد إلى غاية . فما هي تلك الغاية ؟ ولم يدر حول البدييات وإنما دخل في صميم الموضوع وأخذ يدرس ويبحث . إن الفنان مسئول أمام الجماعة . هذا أمر مفروغ منه . ولكن ما هي هذه المسئولية وما طبيعتها ؟ .

يقول بعض النقاد إن غاية الروائي أن يصف في صدق وأمانة ما كان السياسي يتحرك لإصلاحه أو علاجه . وتقول كثيرهم يجب أن يكون للرواية دور تعليمي . وليس معنى هذا أن تكون قصة وعظ ، ولكن أن تكون في جوهرها محافظة على القيم الخلقية ؛ حتى إذا هاجمت التقاليد يجب أن تظل محافظة على تعاليم الدين وسنة الوقار . ولكن دعوة جيمز أرادت أن تكسب هذه الأقوال عمقاً وتدل الروائيين على آفاق في الفن أوسع . ومنذ « جيمز » و « هاولز » إلى أيام « هريك » نجد الإحساس بالمسئولية نحو المجتمع يزداد قوة وعمقاً ، والتحليل الواعي للأدواء الاجتماعية يظهر قوياً جباراً . وفي رواية جيمز « صورة امرأة » نجد البطل يتحكم تحكماً واضحاً في النغم الخلقى الذي أراد أن يتغنى به المؤلف . وفي روايتي

« أميرة كارامسينا » و « أهل بوستن » نراه يعالج المجتمع ، مجتمع بوستن ، في اتساع أفق وقوة عرض لم يسبق لها مثيل . كل عقدة أساسها خلقى معنوى وأبطاله جميعاً من أى صقع كانوا يسرون نحو غاية مرسومة ، لبابها تنظيم الإحساس وتعديل الشعور بحيث تزن العواطف الإنسانية وتظهر القيم المعنوية . وما يكاد يصل إلى هذا الاتزان المنشود حتى يأخذ في مناقشة طريقة وعى الضمير الفردى وما يتركز حولها من موضوعات .

يقول جيمز إن أهم ميزة للأثر الأدبى لى أهم ميزة فى عقل من أنتجها ، والعقل السطحى لا يمكن أن يخرج رواية عميقة . وجيمز يصور طبقة عاشرها بالفعل يريد أن يرسم من خلل رقبتها وسموها وترفها القيم الخلقية التى يؤمن بها . ولكن جيمز لم ينل بعد ما يجب له من إنصاف كتناقد ، وأما نجاحه كروائى فلم يتعد رواية « ديزى ميلر » التى راجت رواجاً نسبياً . لكن أثره فى تلاميذه كان عظيماً .

— ٢ —

أفادت ادِيث هوارتن Edith Wharton من حديثها مع جيمز أكثر مما أفادت من كتبه . وفى كتابها « كتابة الرواية » نراها ناقدة لها شخصيتها ، لا مجرد تلميذة ، وإن تكن تسير فى نفس الاتجاه . وهى تشابهه فى أنها عنيت بالناحية المعنوية الخلقية وأغفلت السياسة والاجتماع والاقتصاد . وكان لا بد لهذا الاتجاه من مستوى خاص أدركته ادِيث أكثر من أستاذها ، وفى روايتها « الشعب » نرى أسلوب جيمز واضحاً . فادِيث تعرف هذه المستويات وتلك القواعد لأن لها فيها نظرة خاصة ، بل هى تعرف من أين تنبعث ، فكانت أحرى بالاستعمال الطرق القديمة البالية . وكان موقفها من مواد قصصها موقفاً بين العالم بها كل العلم ولكنه لا يخضع لها ، وبين الخاضع لوجهة نظر شخصياتها . وكانت الرواية التى تدرس سلوك الإنسان هى الشائعة فى عصرها فاذا هى أيضاً تحلل سلوك أهل زمانها . لقد ألفت أهم رواياتها بين سنة ١٩٠٥ و سنة ١٩٢٠ ودارت فيها جميعاً حول موضوع بعينه هو وصف التدهور الخلقى الذى انتاب سكان نيويورك نتيجة دخول العناصر الجديدة التى أثرت من الصناعة إلى هذا المجتمع . وفى روايتها « الميل الأعظم » و « وادى الاستقرار » ترجع هذا الانحدار إلى الحرب الأهلية

وما جرت من مناورات صناعية واقتصادية . لقد خلقت هذه الظروف في رأيها نوعاً جديداً من الإنسان لا جذور له في الماضي ، وهو لم يعد أي إعداد ثقافي ولا يعرف شيئاً عن تقاليد البلاد وعاداتها . وكان انتصار هذا النوع الجديد سهلاً لأن القدامى لم يدافعوا عن مُثلهم التي أصبحت لديهم جوفاء ، بل مجرد مصطلحات . وفي شخصية السيد مارقل نرى البطل يمثل هذا الجيل القديم ؛ جيلاً كل همه أن يحيا حياة « الجنتلمان » يزدري المال ازدياً هادئاً ويحتقر العاملين على كسبه ، وتفتح نفسه تفتحاً سلبياً للإحساسات العليا ، يؤمن بقاعدة أو قاعدتين من قواعد الأخلاق القديمة ويعرف كيف يميز بين أنواع النبيذ ، وأخيراً يستطيع أن يفرق بين الشرف الشخصي والشرف التجاري .

وعالجت الكاتبة نفس الموضوع بأسلوب هزلي في روايتها « بيت المرح » و « عهد السداجة » ؛ حيث نجد البطولات جميعاً ضحايا لهذا المجتمع الجديد الذي يرفضه أول الأمر ثم ينهزم أمامه . ومن خلال آرثر بطل عهد السداجة تنقد هذا الجيل القديم الذي لم يعرف قديمه معرفة كافية ليتحمس له ، وفي كل هذا نراها تصف مجتمعاً عرفته بالفعل لأنها عاشت فيه وعاشرت أهله . ولم تكن تؤمن بأن المؤلف يجب ألا يظهر في القصة كما كان جيمز يؤمن ، لذلك هي تظهر في قصصها وتنطق برأيها . ومن بعد سنة ١٩٢٠ خبت ملكتها فأخذت تردد القديم في صور تضعف على مرّ الزمان .

وأتباع جيمز من النساء خاصة كثيرات ، من أشهرهن آن دو جلاس سدجويك Ann Douglas Sedgwick التي ألقت « فتاة فرنسية » حيث ترسم الاختلاف البين بين الإنجليز والفرنسيين ، وقد عاشت أكثر حياتها في أوروبا . وهي تتبع مذهب جيمز حرفياً ، ولولا هذا الاتباع ما قدرها النقاد لأن ملكتها في المرتبة الثانية . ولكن أثر جيمز يلاحظ أيضاً في ويلا كاتر وفي إلن جلاسجو .

أما ادith هوارتن فلقد كانت واضحة الميل إلى موضوع بعينه محدودة النظرة لأنها لم تر وراء هذا المجتمع النيويوركي إلى الغرب شيئاً ، ولم تفكر في وحدة الولايات

المتحدة اقتصادياً أو تجارياً . بل إن جهلها بكل شيء سوى مجتمع نيويورك الذي عرفته جيداً وأجادت تصويره كان جهلاً بيناً .

إن من الموضوعات التي أهملت دراستها في تاريخ الرواية الأمريكية نزول القاص إلى مجتمع السوق والشارع وما يعترضه من صعاب وكيف يمكن أن ينقل الحاضر القريب في دقة وأمانة ثم يحتفظ بعد ذلك بفطنة مميزة تجعله يحكم على كل هذا . وفي رواية « البئر » نرى « فرانك نورس » يحاول شيئاً من هذا حيث يصور البطل كورتس جادوين تارة وهو معه في سوق التجارة وتارة وهو في غرفة الاستقبال يفكر فيه .

وتأتى نقطة التحول في تاريخ الرواية الأمريكية نحو الواقعية عند جيمز هاويز Howells فملكته تشابه جيمز ولكن الغايات عندهما تختلف ؛ لقد أثر كل منهما أثراً خاصاً في الرواية . ومن خلل روايته « مسافر من ألتوريا » و « من ثقب الإبرة » يصور عيوب المجتمع وقد أصبحت في نظره مكروهة من الله شائنة للمدنية الحديثة . إن موقفه المتطور نحو الكمال بالنسبة لحال أمريكا الاقتصادية والاجتماعي هو الذي يرفع مقامه ، بصرف النظر عما قدم في كتابه « النقد والرواية » من نظرية تفخيم العادي ، والتغنى بالوازع الديمقراطي الفني . ولكنه بتجاربه وما قد ألف من مجتمع لم يكن معداً لأن يصف الحياة الفجة التي لا شكل لها . والتي كانت تتفتح أمام الطبيعيين الواقعيين الذين جاءوا بعده . لقد استطاع أن يصور الناحية الهادئة المنظمة من الحياة . فوصف طبقة التي عاشها وعالج مشاكل السلوك والمعاملات والزواج وهكذا . وهو يرسم في روايته « سيدة آروستوك » الرجل الدقيق المراعى لشعور الناس من حوله ، وفي رواية « صيف هندي » ، لا يصف العالم الجليل الذي يصفه جيمز مثلاً ، وإنما يريد أن يوضح كيف أن الحياة والغش في المعاملة لا تقودان إلى هلاك الفرد وإنما تقودان إلى هلاك الاقتصاد الأمريكي كله ؛ لأنهما تقودان إلى إفساح الطريق أمام الغزاة من التجار الأجانب .

وبعد هذه القصص الأولى تظهر قصصه الاجتماعية ، وأهم موضوع عالجها فيها هو الأخلاق في المعاملات التجارية . وهو لا يخلق الشخصيات خلقاً ولكنه يجعلها تخدم غايته بشكل ظاهر . وشخصيته الأساسية « سيلس لاهام »

تصور التاجر النيوانجلندي القديم الذي يعرف قيا محدودة معينة لا يقبل أن يتعامل إلا على أساسها ولا يفرق أبداً بين شرفه التجارى وشرفه الشخصى ؛ لأنه لا يرضى عن معاملات يحلها القانون ويحرمها الضمير والشرف . ولكن إزاء التوسع الأمريكى فى الاقتصاد لا يستطيع أمثال لاپهام أن يفسروا ما حولهم أو يعيشوا فيه . فجاءت طائفة من الروائيين تصور الواقع على أنه هذا هو الذى حدث . وإذا الظروف تقهر الروائى وتتحكم فيه ؛ فنظهر الرواية الواقعية التى تصور الواقع الاجتماعى بعد أن كان جيمز وصحبه يروجون للواقع الخلقى . حتى إن قصة هاولز « بعث سيلس لاپهام » خرجت كالنغم الشاذ وسط هذا التيار الحديدى لا تقنع بحقيقة حصولها . ولكن قصته « سكان الكهوف » التى تصف الحياة الحديدية كما هى وتخضع فيها الشخصيات للواقع تتفق والنغم السائد الذى كان يقول سواء رضينا أم لم نرض إننا خاضعون للحياة من حولنا . وهى تصور ضعف الضمير الفردى وعجزه عن أن يتحكم فى أحواله . وإذا التوازن أو الانسجام بين ضمير الفرد وبين الواقع الاجتماعى يصبح مشكلة تزداد صعوبة على مر الأيام . ولعل أصدق من يمثل هذه المشكلة الحديدية سنكلر فى روايته « الزيت » ، التى عالج فيها فضائح التجارة والصناعة و « بوستن » التى عالج فيها فضائح القضاء .

لقد خدم جيمز الرواية الأمريكية خدمة مزدوجة ، ألف فيها ونقدها . وإن لم يكن أتباعه فى حياته فلقد كثروا من بعده وامتد أثره على الزمن إلى اليوم ، وخاصة فى مسألة الخطة والإخراج . ويكفيه - كما تقول ادith هوارتن - أنه نبه القاص لأول مرة إلى أنه مسئول أمام الفن عن روايته . لقد لفت نظره إلى درس الرواية ما يعارض رأيه عند زولا فدرسه ودرس ما يمكن أن تعلم الرواية خلقياً واجتماعياً فخرج بدرس جديد . ولم يقد من درسه كثيرون ؛ لأن الدرس لم يكن سهلاً بحال من الأحوال . ولكن بعد أن ظل الواقعيون يحكمون الواقع والواقع وحده ، أعواماً طويلة يأتى العصر الحديث فاذا رواية كرواية « ظلام فى الظهر » أو « فى منتصف الرحلة » تظهر مؤلفين يحكمون الفن وقواعده وشخصية المؤلف وما تؤمن به فيما يكتبون . وإذا المؤلف هو الذى يحدد معنى الحادث وقيمه .

## مذهب الواقعيين قبل الحرب

يرى النقاد أن هذا المذهب قد تسبب في اختلاف أحكام النقاد على الرواية التي تمثله حتى أن منهم من قسم الواقعية إلى واقعية محمودة وأخرى مذمومة . ولكن تراث هؤلاء الواقعيين قد أمدنا بشيئين : كثرة المواد من ناحية ، وديمقراطية الموضوع من ناحية أخرى ، بحيث أصبح أنفه الموضوعات وأحقرها صالحاً للمعالجة الفنية . وكان أهم ما عيب عليهم هو كيفية تصرف المؤلف في مواده . إنه عندهم لا يختار مادته ، فاذا اختار لسبب ما حمل الرواية من الرمز ما لا يحسن اختياره ، بل ما يتضح تكلفه ؛ ذلك أن المؤلف يخطيء في أغلب الأحيان في تفهم حوادثه وفي رسمها ورسم الشخصية التي تتصرف فيها ، مع أن التركيز والاختيار من أهم دعائم الرواية ، ولكن الواقعيين في سبيل إخضاع الموقف لما يريدون كانوا يضيفون إليه من التوافه دون حساب حتى أخفقوا في منهجهم في التوفيق بين الحوادث التي يقصونها وبين الغرض المراد بقصتها ، أو حكم المؤلف النهائي عليها .

ويرجع عدم تطبيق الواقعيين لأصول مذهبهم الصحيحة إلى ازدهار العلوم والفلسفة خاصة منذ آخر القرن الماضي ، مما جعل المؤلف كثيراً ما يقف أمام مشكلة يتعارض فيها ما يؤمن به علمياً أو فلسفياً مع واقع شخصية البطل في القصة . ولكن الحقائق التي جلت على الناس معترف بها من قبل . لذلك قادت الفلسفة الحديثة إلى إضعاف الشخصية بحيث أصبح المؤلف لا يفعل بها مباشرة وإنما هو مدفوع إلى سرد غير إيجابي وتقريرات وبراہین تقحم على الشخصية إقحاماً لتخدم الفلسفة ؛ فاختلط التصور الطبيعي للصلة الحقيقية بين الإنسان وبيئته وانحرف ليخدم القضية العلمية التي ترجع كل شيء فلسفياً إلى أثر البيئة أو الوراثة .

وكان العصر عصر التوسع الصناعي ، بل إبانه . وظهر كل ما ارتكب في عمار هذا التوسع من فظائع وانحراف عن معنى الديمقراطية الصحيحة ؛ فتدخلت قضايا العلم ، وخاصة ما بشر به سينسر منها ، لتسوغ وجود هذا الواقع الأمريكي الجديد ، ولتعترف بأنه يمكن إصلاحه . ولكن لإصلاحه لا بد من عرضه .

وفي رواية كرين «ماجى» وصف لهذه الأحوال، ولكنه يصفها على أنها موجودة لأنه لا بد لها من أن توجد. وأما شخصياته فهي من الضعف بحيث تستحق ما تلقاه.

وبدأت سلسلة من الروايات. أولاها رواية ابتون سنكلر Upton Sinclair «الدُّغْل» تحاول إما أن تنقد هذا المجتمع عامة، وإما أن تركز النقد حول موطن الداء - وهم الطبقة الطفيلية الثرية التي تعيش بتسخير الآخرين. وعمرت المؤلفين موجة طلب للإصلاح الخلقى توهم بأنه لا بد من الاعتراف أن هذه الأوضاع تقف في سبيل الوصول إلى حياة فضلى. وأنه لا بد من الحكم على هذه الأوضاع بعد درسها. والحكيم هو المؤلف في ثوب شخصية من شخصيات القصة. وبذلك أصبح هدف الروائيين إعداد الوثائق والمستندات لهذا الحكم. وفي سبيل أن يظل المؤلف مطلعاً على أحدث ما يقدمه العلم والفلسفة أصبح المؤلف عبداً للعلم بدل أن يكون سيده. وساعد على إبراز الوثائق ووصف التفاصيل أن أكثر الروائيين كانوا مراسلي صحف امثال نورس ولندن وكرين ودريزر. وكان دريزر أكثرهم جمعاً للمواد التي تثبت لتقنع، وكان كرين أقواهم شاعرية. فأدخل الخيال ليتحكم في موضوعه، وكان نورس أشجعهم وأوسعهم ثقافة. ولكنهم جميعاً جهلوا ما يجب أن يعرفه الناقد الروائى. حتى قال ناقد في هذا العصر إن الروائيين أخذوا كل شيء في الرواية مأخذ الجدل إلا الكتابة نفسها.

والاهتمام بالمجتمع ومشاكله لا بد أن يؤدي إلى إخضاع الشخصية إلى فكرة مجردة؛ فيضطر المؤلف إلى أن يسند لها بيئة متغيرة لتبدو طبيعية ما أمكن. فكثرت المناظر وتلاحقت. والحركة على كل حال تجعل الإنسان متطلعاً إلى نتائجها. وأوضح مثل للحركة الجسدية العنيفة التي تثير حب الاستطلاع والترقب ما نجد في رواية فرانك نورس «ماك تيج» حيث يصف ترينا وماك تيج في معركة جسدية مريعة، فاذا الشخصية في هذا الوطن بالذات، لعنف الحركة، تبدو طبيعية. بينما هي في كل الرواية تخضع لفكرة تمثيل هذا النوع من الناس ولا تصور شخصية واقعية حقيقية.

وللواقعيين قدرة عجيبة على رؤية المنظر بدقة متناهية، وهم يريدون من خلل

تفصيلاته ودقائقه أن يصوروا العالم كله ، وهذا كثيراً ما يقودهم إلى الرمز الفج وإلى حركات وحوار لا يمكن أن تطابق الحقيقة ، وكل هذا بعيد عن إدراك كنه الواقعية البسيط الصريح . ولعل جيمز إذ يحلل أخطاء زولا في هذا يصور لنا الحقيقة أصدق تصوير ، إذ يقول : « إن العلم يتقبل كل إدراكاتنا للحياة ، بل إنه يختصها فإذا هو قوة داخلية من صميم أنفسنا لا من الخارج . والعلم يحيا باستعمالنا له ونحن الذين نستخدمه هو والفن . ولكن زولا يرى أن الفن هو الذي يستخدمنا » .

وكان الطبيعيون ، أى الواقعيون ، على خلاف نظرائهم في فرنسا وأوروبا ، يريدون بواقعيتهم شيئاً آخر . كانوا يريدون تصوير روح أمريكا . ولكن أمريكا طويلة عريضة والمهمة شاقة . يقول فرانك نورس في روايته « الاكتوبوس » على لسان بطله : « كان يريد أن يصور الحياة كما هي مباشرة وفي صراحة من خلل شخصيته ومزاجه ، ولكنه كان في الوقت نفسه يريد أن يرى كل شيء في غمرة نور وردى جميل تطنىء ورديته الخطوط القاسية وتمحو الألوان الفجة » . وهذا ما يفعله المؤلف في روايته بالذات فإذا الاختلاف واضح بتين في مراتب الجودة فيما ألف ؛ ذلك أنه أراد من الرواية أحياناً ما أراد هاولز وهو أن تخدم هدفاً معنوياً خاصاً . وانحرف الواقعيون بالرواية انحرافات جعلتهم يكثرون من الوصف ، ذلك أن الرواية لا بد من أن تصف شيئاً بعينه فاكتظت رواياتهم بالإضافات والزيادات وزخرت بالأشخاص والأحداث .

كذلك اضطروا إلى رسم الرجل فوق العادى ، الرجل الذى لا بد له من قوة خارقة ؛ ولا بد له من أن يصادف أحداثاً غير عادية حتى تتجلى قوته البدنية البربرية إزاء الطبيعة . يقول نوريس : « لا بد من أحداث جسام تحدث لأبطال الرواية الواقعية حتى يخرجوا عن المألوف ويشذوا عن الحياة اليومية الرتيبة الهادئة » . وفي روايته « مالك تيج » ورواية لندن « ذئب البحار » نرى صورة لهذا الصراع البدنى الجبار .

ويمثل دريزر مرحلة خليقة بالدرس في تاريخ الرواية الواقعية . وكان أهم ما كتب كتابه « عن نفسى » . وهو مذكراته التى ضمت أكثر موضوعات رواياته

وفلسفته التي تتلخص في أن الحياة لا تكافئ الخيرين أبداً . كان يؤمن بأن كل التقديرات الإنسانية عرضة للقلب ظهراً على عقب بسبب اختراع ، كهرباء مثلاً ؛ وأن حاجات الإنسان ورغائبه تتدرج نحو الزيادة والتعقيد كلما زاد رقيها . ولم يمحض دريزر إلا عاماً واحداً في جامعة انديانا ، وثقافته تنحصر في عمله في الصحافة وقراءته مخطوطاً لزولا أغراه بقراءة بلزاك أيضاً ، وهو مولع برسم الواقع ، ورواياته عبارة عن تقرير واقعي صحنى نبذ فيه المتدينين ودعاة الأخلاق لأنه نشأ فقيراً وكان يؤمن أن كثرة الحقائق هي ميزة الفن الروائي الأولى . لذلك افتن في تصويرها حية نضرة فيما كتب ، وروايته « الأخت كاري » تقص حادثاً جديداً أخذاً . تكتشف البطلة فيها أن هناك طرقاً ثلاثة لإشباع الرغبة ؛ فالطريق تارة في الفرار مع من تحب ، وتارة في اعتمادها على كسبها الخاص وأخيراً بعد أن هجرها رجلها يصبح في الشهرة كمثلة . وفي الجزء الأخير من الرواية مقارنة فذة بين ما تحسه النفس إزاء إشباع الرغبة الفنية وما تحسه إزاء إشباع الرغبة المادية في المال . ولكن النغم الصادق الطبيعي الذي يصور به المؤلف حوادثه ، والحدة والطرافة التي امتازت بها مناظره ، ساعدت على رواج القصة . وألف في موضوعها رواية « جنى جرها رت » حيث يصور ضعف الرجل ، والحب غير المشروع ، والخروج على التقاليد وما يعانيه الخارجون عليها من أحزان . فلقد أحببت البطلة — بعد زواج غير شرعي كان لها منه ابن — رجلاً آخر ففرق بينهما اختلاف الطبقات .

وفي قصته تلك صورة أخرى كالتى نراها في « المأساة الأمريكية » أراد أن يصف بها كيف أن التقاليد الاجتماعية لا يمكن أن تتوافق أو تتواءم مع الشهوات والرغبات الإنسانية .

وتتمثل في قصتين من مجموعة قصصه التي بطلها « كاوبر وود » قوة أمريكا الحقيقية . فالبطل صورة مجسدة للقوة المادية قد عزل نفسه عن كل نطاق من نطاقات التقاليد ، بل عن نطاق الخير والشر . دستور دسستور البقاء للأصلح ، والأصلح هو الذي لا يشغل نفسه بأخلاق أو بتقاليد . وتأتي ميزة الرواية وقوة تأثيرها مرة أخرى من وفرة التفاصيل التي لا يحددها حد أو انتقاء ، ومغامرات البطل تتكرر في جمع المال واقتناء التحف وحب النساء . وحببياته

سلبيات ليس فيهن الروح المستقل المتعطر الذي نراه عند كاتر ، بل ليس لهن الارادة القوية التي تعينهن على احتمال ما يلزمهن .

وترجع شهرة درايزر أيام حياته أكثر ما ترجع إلى الحملة التي شنّها عليه دعاة الفضيلة في عصره ؛ فقد وافته الشهرة من باب الفضيحة في روايته الأوليين . ثم جاءت روايته « مأساة أمريكية » لتتحدى الناقدین القائلين بأن سيناته كمؤلف ترجح حسناته . والقصة بالرغم من طولها بسيطة التركيب ، فيها القضية والجريمة ثم إنعام النظر في القضية ؛ حيث يحاول أن يدرس الظروف النفسية والبيئية التي قادت إلى موت روبرتا آلدن ، وكيف يمكن تفسير هذا الموت . وهو يولي العوامل الاجتماعية أكبر نصيب من عنايته . وكلايد ، البطل ، فقير لا يستطيع أن يشبع رغباته لفقره ، فهو لذلك يكره التقاليد التي تملى عليه الحد من الرغبات ، في حين تدعوه الحياة إليها ، وهو لضعفه يفر من إغراء إلى إغراء . ثم يمهد له خاله عملاً في مصنع يرقى بسببه بعد أن قامت بينه وبين روبرتا العاملة في المصنع نفسه علاقات . ويتردد في زواجها بعد أن حملت منه ؛ لأن أحواله تبدلت فأصبح من طبقة أخرى . وفي نزهة في البحيرة تغرق روبرتا ولا يد له في هذا الغرق . ولكنه يذهب إلى الجلاد واثقاً من أنه قتلها لأنه مسؤول معنوياً عن هذا . والقصة تروى من خلل المرافعة أمام أصدقاء روبرتا من المحلفين . إن البطل لم يقدم على الجريمة لأنه ضعيف . ولو كان قوى الشخصية لكان مجرمًا . وفي الفترة التي يقضيها البطل بن السجن والإعدام يجد الكاتب مجالاً للكلام عن الدين بما يشهد بأنه لم يعد ينظر إليه على أنه مجرد كلام فارغ ، كما كان يقول في روايته الأولى . لقد نجحت القصة رغم كثرة التفاصيل وتكرارها وتأكيدها ، وفي كل خطوة كانت تضاف إلى البطل أشياء إلا العمق فانه لم يضيف إليه أبداً .

### ويلا كاتر وإن جلاسجو

أعجبت ويلا كاتر Willa Cather بجيمز وهوارتن أنساء دراستها في جامعة نبراسكا وظلت معجبة بهما أبداً ، ناقدة ومؤلفة . ترى المثالية في طريقتهما ، وتقول إن أكثر من اتبع جيمز قلده دون أن تكون له ملكاته .

ودعت ويلا إلى الرواية التي مسرحها الأرض الطيبة . فلقد كان المنظر قبل زمانها يدور في غرف الاستقبال ثم انحرف قليلا نحو البيوت الفقيرة والدكاكين الصغيرة .

قضت ويلا جزءاً من حياتها وسط المروج تهفو إلى المثل العليا في الفن والأسلوب . تقول عن قصتها الأولى « قنطرة الاسكندر » إنها كانت تحس أنها في نزهة خلوية تحدث رجلا لم ترتح إليه فظهر الحرج في أسلوب هذه الرواية . وكانت كلما رحلت شرقاً تحاول أن تجد المنظر المثالي الذي يصلح مسرحاً لفنها الروائي . ثم ارتفع قدر العالم الذي رحلت عنه في نظرها بعد أن نشرت « الأنسة جويت » روايتها عن بلدها . أي عن هؤلاء الذين خرجوا من الأرض ، لا هؤلاء الذين يعيشون في بيئة لا تعرفها وهم دائماً في صراع مع بيئتهم . ومزجت بين أثر جيمز وأثر جويت وأضافت من عندها فاذا مراعيها ليست لندن جيمز ، ولا نيوا إنجلند جويت ، وإنما هي تجربتها الخاصة . وأخذت عن جيمز الإخراج والتكيب والحذر والشخصية التي لها وجهة نظر واضحة كما نرى في شخصية جيم برون في روايته انتونيا ، وأخذت عن الروائية جويت الشجاعة في وصف البيئة بكل قوتها . ولم يكن من المستطاع أن تصف نبراسكا كما وصفت جويت ساحل مين . لأن بيئتها تحتاج إلى نوع آخر من الخيال لا تستطيعه جويت . لقد أحالت عظمة البراري من يعيشون عليها أقزاماً تحدثهم في صراع عنيف ، يموتون أو يعيشون إذا انتظروا . وأخرجت من خلل روايتها « يأبها الرائدون » و « عزيزتي انتونيا » كل ما يمكن أن يخرج من هذه البيئة من موضوعات قصصية . وكان أهم ما رسمته هو قسوة الأرض التي خيبت كثيراً من أمل الرائدین الأولین . وفي ظل هذا الصراع العنيف مع الأرض كان امتحان الشخصية عسيراً . لا يمكن أن يعيش إلا الأقوى ، والأقوى في الروايتين امرأة . تقمصت كل منهما روح الأرض ورأت نفسها فيها ، وآمنت ألا سبيل إلى النصر إلا بالصبر على المشاق وبالأمل الذي ينبض في النفس فيرى نابضاً في بعض مظاهر الطبيعة من حوله . هي المرأة التي تحتل ، وهو الرجل الذي يفسر احتمالها ونتائجها ، وأكثر الرجال فنانون قد أرهف حسهم بحيث لا يستطيعون أن يتحملوا قسوة الأرض . وإنه لصمود المرأة هو الذي يكفل النصر ، ولكن ما يضيء عليه الألوان الزاهية هو قص

الرجل له . والمرأة هي التي تبقى على الأرض بعد أن يرحل الرجل إلى المدينة ،  
وسواء أرجع أم لم يرجع ليتزوجها فانه في الحالين خادم لغايتها .

وكانت ويلا كاتر تعرف عظمة الحياة الريفية ، ولكنها في الوقت نفسه  
تعرف أهم عيوبها ؛ ذلك أنها لم تكن تحتل الفن أو تشجعه . وفي روايتها  
« أغنية الليل » تصف كيف اضطرت البطلة لأن ترحل إلى الشرق لأن بلدتها  
كولورادو لم تكن لتحتل فيها بحال من الأحوال أو تشجع عليه . ولولا بضعة  
أشخاص في هذه البلدة الصغيرة ، كعامل القطار الذي دفع لها مبلغ التأمين على  
حياته لترحل به ؛ ماتت فيها . ولكن المدن وما أتيج لها فيها من نجاح لم تحل  
في قلبها محل بلدتها التي نشأت فيها مهما جحدت فيها أول الأمر .

وينشأ على المراعى المتناثرة جيل جديد لم يعد يجد ما وجد أجداده في تلك  
البيئة من سحر فانتزاح عنها إلى البلدان الصغيرة التي نشأت على الحدود الغربية ،  
وأصبحت هذه البلدان لا تطاق بالنسبة للمؤلفة . ترى فيها انجاس الملكات  
والنفس ، فلاهي متحضرة بما يكفي للإيجاء بالفن ، ولا هي لها سحر الريف الطلق  
العميق فيما يثير من حب للأرض وللحياة . وفي قصتها « واحد منا » تصف كيف  
يسير الفلاح نحو هذه المدن حاملا ما هو قيم من محصولات وحيوانات ليعود  
بسخافات من الأثاث والملابس واللعب . وبعد الحرب العالمية الأولى تصف  
كاتر التاجر الذي لم يطق جو تلك المدن الصغيرة . ولكنها بسبب الحرب ترى أن  
حياة العالم انقسمت قسمين : عالم ما بعد الحرب ، وعالم ما قبلها . وهي تميل إلى  
العالم القديم . وفي مقالاتها التي نشرتها تحت عنوان « وقد جاوزت الأربعين »  
نحن إلى عالم الأمس ، وفي روايتها « بيت الأستاذ » تفسر هذا الحنين وتضيف  
إليه حيناً إلى البيوت القديمة وإلى الاستقرار والأمن فيها .

ولا تختلف رواية « الموت يأتي الأسقف » عن رواية « ظلال على الصخر » ،  
من حيث نقطة الاهتمام أو الموضوع فحسب ، ولكن من حيث الشكل أيضاً . فهى  
تدعو فيها إلى عدم الصنعة ، والأشخاص تقص قصتها دون زخرف . والروايتان  
تمثلان في جلال وسكون حياة البسطاء في كندا وفي الجنوب الغربي . وترى المؤلفة

في تلك البساطة الملجأ الوحيد من الحياة الجديدة ، وإن يكن أبطالها يمتازون ببساطة وقوة لم توجدا حتى في أبطال المرامي ، فإن المرء يحس أنها قد ضحكت بكثير في سبيل هذا الذي رأت أنها لا بد أن تفعله. لقد فقدت العمق والبراعة في العرض. فعالم الروايتين عالم طفل ، وكان يمكن أن تعود إلى بعض أبطالها كجم بردن بطل « أنتونيا » لتحاول أن تتعمق نظرتة وأن تكيف موقفه من المدنية الحديثة ، ولكنها لم تفعل . ولما عادت من كويبيك إلى المرامي عادت إلى موضوعاتها تحيها من جديد ولكنها بعد أن تلونت نظرتها وفرضت على نفسها فكرة جديدة . ولما أخرجت روايتها « سفيرا والأمة » عام ١٩٤٠ كانت أفضل ما يمكن أن تكون ؛ فالأبطال لا يتحركون إلا بأمر ما فرضت من موضوع على الرواية . قالت عنها اليزبث مونزو تريد أن تقلل من قيمتها كمؤلفة : « إنها ممن نالوا مقامهم في الشهرة عن طريق نبيل الخلق و صقاء الفكر ، لا عن طريق الفن الصرف » . وأما كازن فيراها أعمق خيالاً من همنجواي .

لقد كانت تؤمن بأن الرواية خيال عميق قبل كل شيء . وكانت تعرف فيم أخفق أصحاب المذهب الواقعي ، ولكنها لم تستطع أن ترى موضوعاتها بعين أهل نيويورك ، أو أن تفهم ذوقهم . لقد طبقت مذهب جيمز على الكتابة ولكنها أخفقت في أن تقلل من حماسها للموضوع في سبيل الفن حتى انحرفت نظرتها السليمة إليه . وكما انقسم العالم سنة ١٩٢٢ إلى عالمين في نظرها فكذلك انقسم موضوعها منذ هذا التاريخ . لقد كانت محافظة وبدلاً من أن تعالج موضوع الساعة استخدمت ثقتها لتنبذه . هذا الموضوع الذي كان يمكن أن يمدها بجوية تجعلها ترى أن حياة بني جنسها لم تكن مجرد إسفاف في إسفاف نحو المادية الحقبية . لقد قرنت بين موضوعها وبين طريقة جيمز قرناً ما كان إلا على حساب عظمة الفن عندها ، إذ ألزمت نفسها بلذوق معين مقيد أفسد عليها ما كان يمكن أن تصل إليه بتجاربها في عالم الفن .

والن جلاسجو Glasgo محافظة مثل كاتر ، وهي مثلها من فيرجينيا ، وقد أرادت هي الأخرى أن تصف إقليمها في الرواية . ولكنها كرسست رواياتها لوصف أهل الإقليم ثم تبعتهن إلى نيويورك وبذلك تنقسم تأليفها إلى أقسام ثلاثة : المجموعة

التاريخية ومنها « أرض القتال » و « الخلاص » و « صوت الشعب » و « قصة البسطاء » ثم المجموعة الريفية حيث تصف أهل فيرجينيا المعاصرين ، ومنها « طحان الكنيسة القديمة » و « الأرض الجرداء » . ثم المجموعة المدنية ، ومنها « حياتنا في هذا » و « خروا للجنون ساجدين » و « المضحكون العاطفيون » و « الحياة الحانية » . وهي في المجموعة التاريخية تستعرض حياة أهلها منذ سنة ١٨٥٠ في رواية « أرض القتال » حتى تصل بهم إلى العصر الحديث في رواية « حياة جبريلا » حيث ترسم بقايا تقاليد اجتماعية عني عليها الزمن . وفي « أرض القتال » تصف أسرتين تعيشان على الأرض ومجتمعهما بكل ما كان فيه من خير وشر ، وسحر وظلم ، وبطلتها بتي آ ميار تصور عزم الجنوب ، بعد أن انهزم في الحرب الأهلية ، على أن يستعيد تراثه وأن يبرأ مما أصابه . وهي تصور روح الجنوب الذي حارب في مروءة ومرح وظل رغم الهزيمة غير مهزوم . ولا تخلو روايتها من نقد ، تقول : « كان التراث الثقافي في الجنوب الغابر مليئاً بالسحر والجمال والمرح ولكنه كان واهي البنيان ؛ لأنه استند على استعباد جنس من الناس بدل أن يستند على ملكات أهله الخالقة ، ولم ينهزم الجنوب بسبب الحظ ولا بسبب نظام الكون العادل ، ولكن الفقر الاقتصادي هو الذي غزاه فهزم . وفي النصر الاقتصادي القادم لا يمكن أن تقف التقاليد الأرستقراطية إلا أثراً قديماً تذكاريّاً وحيداً لأن الزمن قد هجره » . وهذا موضوع أقوى من الموضوعات التي أتاحت لمعاصريها . وهي تعالجه علاجاً مشوقاً حتى تصل إلى ذروة الجودة في التأليف في وصفها لمأساة الأخلاق والقيم المعنوية ، وبطلاتها عبارة عن مثل أعلى مهجور ، أوقم انصرف عنها الناس ، جميلة قد تأخر زمن خروجها إلى العالم فلم يحفل بها إنسان . حتى دستور الخلق القويم كان من ضحاياها جيش من العانسات . تقول إن خير ما ألفته كان بعد عام ١٩٢٢ حين تعرضت للسخرية من الأخلاق في هزلياتها التي تعتبر هي وروايتها « الأرض الجرداء » و « عرق الحديد » أجود ما أخرج قلمها . وأهم ما يمتاز به هذه الروايات سخرية برعت فيها الكاتبة وملاحظات عن أفول نجم الجنوب ، إذ عاشت الكاتبة حياتها وسط هؤلاء الذين ظلوا يذكرون تقاليد قديمة باهتة يحنون إليها في كل حين . أما روايتها « الحياة في ظل الحمى »

ففيها اعتراف بوجود الرجل الحديث الذي ينفض عن نفسه غبار القديم في غير مبالاة، وإن يكن فيها « أركبالد الضابط الحربى » الذى اعتزل الحرب بعد هزيمة الجنوب ، وظل يأسى على ما فات وعلى العهد الذى أفسدته التجارة والأطماع الحديثة ، ولكنه لا يأتى إلا بالاستسلام اليائس . وإلى جواره الحديث وقد تبلور فى شخصية « بورديسج » الرجل العاثر الذى يسحر النساء فتتخذ المؤلفة منه مادة لسخريتها المريرة ، وخاصة آخر الرواية عندما تصف عودته من رياضة الصيد ومعه خمس وعشرون بطة .

وإن جلاجمو من أنصار جيمز فى أن الشخصيات فى القصة يجب أن تكون لها وجهة نظر معينة ، وأن القصة يجب أن ترى من وجهات نظر الذين يحيون الحوادث فيها ، ففعلت ذلك فى كل رواياتها . وكثيراً ما تتضارب وجهات النظر وتختلف بين جيلين من الناس ولكن يتجلى فى كل هذا فن الكاتبة فى إبراز وجهة نظر الشباب بعاطفتهم الفياضة وشجاعتهم ، ووجهة نظر الشيوخ فى حكمتهم وصمودهم . ولا تشكو رواياتها من تعلقها بهذه الطريقة الصحيحة ولكنها تشكو من أنها لم تترك وجهات النظر تسبح فى فضاء طلق حرّ بحيث تكمل وتصل إلى آفاق بعيدة . لقد ظهرت فى الرواية أبدأ لتحاول أن تحدد وأن تلتطف وأن تجعل الشخصية فى بعض الأحيان وخاصة فى روايتها « خروا للجنون ساجدين » تتحدث بلسانها هى لتلتطف من وجهات النظر حسبما ترى أنه يجب أن يلتطف . ولما فرضت شخصيتها على شخصيات الرواية لتحد من انطلاق وجهات نظرهم حملت موادها فوق طاقتها ، فبينما كانت تسخر بالزمان القديم وقد عنى جماله كانت تريد فى الوقت نفسه أن تمثل العظمة الروحية والقوة النفسية وهى تتجلى فى بطلات لم تفسدهن المدنية الحديثة . لقد أرادت كاتر ذلك أيضاً ولكنها انتخبت بطلاتها من الريف وحوادثها من الأرض ، أما إن جلاجمو فبطلاتها من المدينة وحوادثها فيها فاضطرت إلى أن تعوض بالأسلوب ما عجزت عنه هذه المواد فى خدمة الغاية العامة ، اضطرت إلى أن ترجع البطل إلى بيته فى الريف كما فعلت فى « عرق من حديد » ليجلو روحه ويظهرها من أدران الحديد . وليس هناك ما يدعو إلى أن نظن أن أبطالها من صنع الخيال لأنهم يؤكدون

وجودهم ، والأسلوب يسمو إلى ما يقرب من الشعر في تأثيره عندما تصف المدينة إبان الأزمة الياثسة . إنها تتحكم في كل جزء مما تكتب ولم تتأخر خلف موضوعاتها كما كانت تفعل كاتر ، ولعل عيوبها ترجع إلى المغالاة في مزاياها فقد اهتمت بالإخراج وكان إحساسها بحاجات الفن الروائي أقوى من زميلتها ويلا كاتر .

### جرترود شتين

كانت جرترود شتين من أول الذين رحلوا متغربين من أمريكا إلى فرنسا فأثرت هناك في جيل بأسره ؛ جيل الكتاب الذين نزحوا إلى فرنسا بسبب الحرب . وكان أثرها فيهم بما حدثت وحاضرت أكثر من أثرها بما كتبت عن فن الرواية وما مثلت به نظرياتها من تأليف جديد . لقد وصفت حياتها ثلاثين عاماً في فرنسا في كتابها « حياة الس توكلاس » ثم ألقت كتابها « ثلاث صور من الحياة » الذي مثلت به ثلاثة نماذج من فن القص حسبما ترى أنه ينبغي أن يكون .

وكان همنجواي الروائي المعروف من أهم من اتصل بها في تلك الفترة ، وكان حريصاً على معرفة رأيها فيما يكتب دقيقاً في تنفيذ كل ما توصيه به . كتبت إليه مرة تقول : « لقد وصفت كثيراً ووصفاً لا قيمة له فأعد كتابة ما كتبت مرة أخرى وكن دقيقاً واقعياً » . وكانت ترى أن الذي يكتب من وحى ما قد قرأ أو من وحى ما قد رسب في الذاكرة من تجارب الآخرين لن يخرج شيئاً ذا قيمة ، وإنما التأليف الحق يجب أن ينبع من التجربة المباشرة وأن يصفها في الحال . والفرق بين السطحية والأمانة في النقل فرق دقيق ، كثيراً ما يكون غير ملحوظ . ولكن فن الكتابة هو الذي يعين على هذه التفرقة . وإن كثرة ما يذكر المؤلف من أحوال ومواقف تضر بالوصف وتنزل به إلى السطحية ، بل كثيراً ما تخرجه إلى الانتحال والادعاء . ووحدة التأليف عند جرترود هي الجملة المفردة لا الفقرة . كانت تقول عن شروود اندرسن إن له عبقرية في أن يحتمل الجملة الواحدة عاطفة مؤثرة ، ذلك أن الفقرة قد تصل إلى هذا ولكن لا بد من أن تكون الجملة الواحدة قادرة عليه . ومن تعاليمها أن الحياة لا تتغير ولكن أجيال الناس هي التي تحس منها التغيرات بما تجر به منها بالفعل . فالتجارب ، أو كيفيتها على الأصح ،

هي التي تختلف . وعلى الكاتب أن يرى ما يريد وصفه لا أن يصف ما يراه . ونجد في كتابها « ثلاث صور من الحياة » في وصفها للحياة الثانية ، حياة ميلانكنا ، نظرياتها وآراءها كلها ، وقد طبقت . إن أول ما توصى به أن يعيد الكاتب كتابة ما كتب مرة ومرة . وأن يظل أمام موضوعه محسباً له لا يغفل عنه لحظة ولا يفوته شيء واحد مما فيه ولا يرى شيئاً واحداً ليس فيه ؛ وأخيراً أن يستعمل كل شيء فيما يرى وألا يترك منه أي جزء . ولكن آثار هذه الدعوة ، دعوة الدقة والعناية بالجزء الأساسي الأولى من التأليف - وهو الجملة - ترى واضحة عند همنجواي لا عندها . وإن مجرد المقارنة بين جزء من قصتها عن ميلانكنا حيث تصف بدء إحساس جف بحبه لها . وأي جزء من رواية همنجواي « على السلاح السلام » لربنا مقدار ما أثرت به دعوتها في تأليف معاصريها إذا قيس بمقدار ما طبقت هي من هذه الدعوة . لا شك أن آفاق الفن كانت عند همنجواي أوسع وأعمق وأكبر استطاع أن يجنب فنه خطأ الإنشاء ؛ واضطراب الإدراك والتعمق ؛ بفضل الدقة المحددة بالجملة الواحدة التي علمته إياها شتين . ويقف إلى جانبها مؤثرون آخرون في فن الرواية ممن أتوا بعد الحرب ؛ كالشاعر إزرا باوند ، الذي كان يريد أن يرتفع بأسلوب الشعر إلى المستوى الرفيع الذي وصل إليه أسلوب النثر . وكان هناك فورد مادوكس ؛ فورد الذي عمل في مجلة ترانس اتلانتيك مصححاً فأثر ذلك في تكوين مذهبه الفني الذي اعتمد على البساطة والإخلاص ، يقول : « يجب ألا تقول أيها الكاتب إنى أكتب هكذا لأنى أريد ، ولكن قل إنى أكتب هكذا لأن القارئ الذي لم يفسد ذوقه يريد » .

ولا ننسى أن هذا كله قد حدث في باريس ، أعظم بوتقة للروح الإنساني إذ ذاك ، فاستطاع هؤلاء الشبان الذين لم يكملوا دراساتهم في الجامعة أن يتلقوا ما لا يمكن لجامعاتهم أن تلقنهم إياه من دروس . لقد فصلتهم الحرب فصلاً باتاً سريعاً عن عالم ما قبلها ، عالم التعميم ، حيث نعيم العقل المستريح إلى الغموض . يقول بيشوب : « ليس المؤلم في الحرب أنها أفنت كثيراً من الخلق ، ولكن المؤلم فيها أنها محت عنصر المأساة في فكرة الموت . لقد أحالت الحرب القيم المعنوية التقليدية فأصبحت لا هي مقبولة ولا هي مستساغة . وهي لم تمحها لتصل إلى هذا ولكنها

كشفت مجرد كشف عن عدم صلاحيتها للحياة الحديثة بحيث وقف هؤلاء الذين ظلوا آخر الأمر على قيد الحياة بعدها أمام دنيا لا قيم فيها، عليهم أن يواجهوها كيفما يستطيعون .

وقادت هذه الحركة في باريس إلى دراسة فن الرواية من زاوية جديدة، إن تكن ساذجة إذا قيست بما قبلها، فهي أقل ادعاءً وأكثر لصوقاً بالواقع لا تكاد تحتل إلا ما كان فعلاً من صميمها. وقد إعجاب هؤلاء المتغربين بروائي القرن التاسع عشر وإن ظلوا يعجبون بمارك توين في « هكلبرى فن » لأن الكاتب ظل مخلصاً لطاقت موضوعه ومداه. وكذلك أعجبوا بكرين لوصفه العواطف الأصيلة التي أثارها الحرب في نفوسهم في روايته « شارة الشجاعة الحمراء ». ويكفي أن نأخذ من هذه الرواية المنظر الذي يصف فيه الكاتب ميدان القتال منعكساً على الطبيعة من حوله ونقارنه بوصف ميدان القتال معكوساً على الطبيعة الرامزة إليه عند همنجواي في « على السلاح السلام » لنرى الفرق بين هؤلاء الذين أثروا في جيل ما بعد الحرب والذين تأثروا بهم وقد استوى الفن الحديد عندهم بكل عظمته وقوته التي لا تأتيه إلا من البساطة والدقة. إن الروائي الحديث قد تأثر بمن سبقوه ولكنه تعلم من معاصريه فن الكتابة بالفعل، ولم يتناقش حول نظريات أو مذاهب يمكن أن تتحكم في التأليف. ومهما يقل في فن هؤلاء فالذي لا يمكن أن نمارى فيه هو أنهم عرفوا أخطاءهم ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من الإجابة لا بالصدفة ولا بتجنب ما قد مرّ على من سبقهم من أخطاء ولكن بالجهد الشاق والمرانة الفعلية المستمرة.

### بين الحربين

أمدت الحرب الروائيين بمادة وفيرة فألفوا فيها كثيراً، ولكن تأليف همنجواي أحسن ما يمثل حقيقتها. لقد صور فيتزجيرالد هذا الجيل الصغير الذي أصبح بعد الحرب مثلاً أعلى للجيل الذي أنجبه؛ ينصحه لأنه يعرف من واقع الحياة بسبب الحرب التي خاضها أكثر منه. أما همنجواي فقد عني بالجندي العائد إلى عالم

ما بعد الحرب فوجد أن في هذا العالم باطلا لا يعرف ماذا هو ولكنه واثق من وجوده . ألف عن عالم هؤلاء الذين اغتربوا في فرنسا ليحاربوا ولكنه كان معنيا بالعالم الذى عاد إليه جندى الحرب ، وإذا جيل جديد لم يقرأ من الرواية التقليدية شيئاً يقرأ ما ألف عن الحرب لأنه يريد أن يعرفها بكل بشاعتها وإمالتها ، ويريد أن يعرفها قبل كل شيء ممن خاضوها بالفعل لا من نساء عاصرهن في الشيخوخة .

وكانت الحرب هي المنظر الأساسى الذى دارت من حوله أحداث روايات همنجواى . وفي روايته « على السلاح السلام » نجد معالجة هذا الموضوع تصل إلى ذروتها النهائية التامة . ذلك أنه في مجموعة قصصه « في زماننا » وفي روايته « الشمس تشرق هي أيضاً » قد صور الحرب في ذاتها وفي أثرها ، وعلى ذلك خرجت رواية « على السلاح السلام » إلى قراء مستعدين للمعالجة النهائية لهذا الموضوع . وفي الجزء الذى تدور حوادثه في كايورتو من تلك الرواية نجد الكاتب يصل إلى الذروة التى مهدت لها تأليفه العديدة ، بل تأليف معاصريه أيضاً . وفي هذا الجزء ، بل في أكثر ما ألف - وإن يكن بدرجات أخف - نرى الآثار العنيفة التى قادت إلى ازدياد قيمة الإنسان بعد ما خاضت المثل العليا للمدنية الغربية قسوة الحرب وحسرة التقهقر . لقد صور كرين في هنرى فلمنج السخرية التى يحسها عالم ما بعد الحرب ؛ إذ يقارن بين واقع الحرب والحياة الناعمة الهادئة يمثلها العليا قبلها ، ولكن عبقرية همنجواى في أنه أخرج من كل هذا فناً جديداً لم ينتفع من مجرد موضوع أو مجرد كون القارئ مستعداً له ، وإنما انتفع بتجربته الخاصة ، فاستطاع بفنه الذى أتقنه ودرسه وعاود دراسته في صبر وأناة أن يستنفذ كل ما يمكن أن يستنفذ من حيوية هذه التجربة وقوتها .

جاء باريس بتجارب أمريكى عاش وسط القارة الجديدة ، لا يملك من التجارب أو العلم إلا تمريناً غير منتظم في كتابة تقارير للصحف . وكان لحسن الحظ ممن لا يطمثون إلى الملكة الأدبية ، حتى ملكته الشخصية لم يعترف بسلطانها . وأراد مخلصاً أن يعرف الفرق بين كتابة تقرير وكتابة فن . فأخذ على عاتقه أن يدرس حتى يعرف . وساعده الشاعر پاوند الذى كان يصلح له مسوداته واتصل بجرترود شتين فلقنته الصنعة العظيمة التى أتقنت أصولها ولم تستطع تطبيقها

لطفولة عبقريتها . كانت تجارب همنجواي كلها صالحة للفن الذي تصدى له ولكنها لم تأت في صورتها الأدبية لأنها لم تكن أكثر من مجرد الحيرة التي عاناها روح صاف جاهل يريد أن يوِّقلم نفسه على هذا العالم الحديد ، عالم أحالته الحرب إلى مجرد قسوة وعقد . وهذه شخصية نك آدمز في روايته «في زماننا» يصف حياته في مراعى ميشيجان وغاباتها وقد انقلبت رأساً على عقب ؛ فيقف البطل حائراً متعجباً يريد أن يوِّقلم نفسه . وكثيراً ما يلجأ الكاتب إلى الرمز . ففي القصة الثانية من هذه المجموعة يصف منظراً من مناظر الهجرة بسبب الحرب ؛ هجرة يشارك فيها نك نفسه . وإذا امرأة تلد في الطريق ولادة عسرة تضطر الطبيب المرافق للمهاجرين أن يجري لها جراحة في الطريق ، فينتحر الوالد الزنجي من هول الموقف ويخرج إلى العالم طفل جديد - وفاة رجل في قسوة وعنف ، وميلاد طفل في عصر جديد في أسوأ الظروف . ويسأل الابن والده : « ما الموت ؟ أهو عسير؟» فيرد عليه : « أظنه كذلك.» ثم يحور الموضوع إلى الكلام عن نزهة بحرية ليصور بذلك فرار رجل ما بعد الحرب من تفسير ما لا طاقة له بتفسيره . أما الابن فإنه يخرج إلى الحياة ولاشئ يعينه عليها ؛ فلا إيمان أمه ، ولا معلومات أبيه تنفعه بشئ . كل ما ينفعه التجربة الشخصية . ولكن همنجواي يمتاز أكثر ما يمتاز بتصوير المقاومة التي يحسها الإنسان في نفسه من هذه الحال . والمقاومة عنده كثيراً ما تصور بمنظر من مناظر الألعاب الرياضية ؛ مناظر الصيد ومصارعة الثيران . وفي مصارعة الثيران يتسع الأفق ويقوى الرمز ؛ لأن لكل الرياضات قوانين لا بد من الدقة في اتباعها ؛ ولكن مصارعة الثيران تعرض حياة البطل إلى الموت إذا هو لم يعرف هذه القوانين ولم يكن سريع البديهة سريع التصرف . لذلك نراه يصف المصارعة في رواية « الشمس تشرق هي أيضاً » وفي « الموت بعد الظهر » . وفي وصفه لصراع روميرو بطل الأولى ، يصل إلى الذروة في استخدام هذا المنظر للرمز . وهو في هذه الرواية يصف مجتمع الغرباء في باريس وهم يتلهون عن الهزيمة المعنوية بالشراب والحب فيخفقون وإن أجلوا الأزمة . ثم ترحل شخصيات القصة إلى بامبلونا فاذا في هذا المجتمع أيضاً محاولات فرار ؛ في الإيمان أثناء الجنائز

والشراب أثناء الأفراح ، لا تغنى شيئاً . وفي منظر مصارعة الثيران يتجلى البطل بفنه وحذقه والكاتب يستغله ليرمز إلى الحالين وليصور الحاجة الماسة إلى التأقلم على العالم الجديد . ومجتمع باريس ومجتمع بامبلونا يلتقيان في حب روميرو لبرت الباريسية ، ولكن تنافر المجتمعين واستحالة التقائهما يرمز إليهما بأن برت ارتضت ، للومضة القدسية التي لمحتها في فن روميرو وحياته ، أن تركه لعالمه هوللينج من عالمها الذي عادت إليه . وفي شخصية جيك صورة للانقطاع التام بين مجتمع أثرت فيه الحرب وآخر كان بمعزل عنها .

ثم ظهرت رواية « على السلاح السلام » وقد مهدت لها الأرض لتكمل ما عرضه في « الشمس تشرق هي أيضاً » . هذا البطل الذي عاش بعد الحرب قد صورت إحساساته في الرواية الأولى وجاءت الثانية لا لتفسرها وإنما لتحاول أن تواريخها ، وأن تواريخ العناصر التي داخلتها . وهو يصل في وصف بعض مواقفه إلى الذروة الفنية التي لم يصل إليها من قبل ، بل التي لم يصل إليها هو نفسه إلا في هذه الرواية ؛ فوصف التفهقر من كاپورتو بعد قطعة فنية خالدة بإجماع الآراء . ولكن الفجاجة التي عانتها مؤلفاته فيما بعد بدأت منذ هذه الذروة أيضاً . لقد بدأ ينسى إلى حد ما الدروس التي تعلمها في باريس ؛ فالمواطن التي يحاول فيها البطل أن يعلل مشاعره بدل أن يصفها وصبغاً مباشراً قلقه ، كان يمكن الاستغناء عنها . وتدور حوادث الرواية حول مرافقة الملازم هنري ، لأسباب غامضة ، القوات الإيطالية . وهو يحسّ معهم أن مثل الحرب كلها زائفة بشعة ، فيبرأ منها ويجد في حبه عوضاً عنها ، بل يجد فيه ما يسوغ تخليه عن الحرب وتركيز آماله في الحب . وإذا به يجد نفسه فجأة لا يملك شيئاً . والمؤلف يحلل باعث الحب وأثره منذ بدء الرواية إلى آخرها تحليل دارس يريد أن يبرهن على ما يمكن أن يقدمه هذا باعث من طمأنينة للنفس الهائمة بعد تجربة الحرب . ولعل تأملات البطل وملاحظاته هي التي تسوغ وجود الرواية وتجعل لها كل القيمة . ولكن أسلوب هذه الملاحظات يشعر بما قد أصاب المؤلف . لقد انتابته حمى التحمس لمثل أعلى ولكنه في سبيل ذلك فقد شيئاً من نظرتة النفاذة في المعنويات وجزءاً من تماسكه الفني . وإذا أبطاله فيما بعد في روايته « لمن دقت له

أجراس الموت» و« أن تملك و ألا تملك » ، بل في مسرحياته ونثره غير القصصي يغيرون أبطاله السابقين . لقد بدأ يتكلف وأصابته الدارس المخلص المتقن لصنعتة سكرة النصر السريع ، فعانى فنه من تلك النشوة .

لقد أحس أنه في تأليفه حتى سنة ١٩٢٠ كان يستطيع أن يكون أميناً مخلصاً لتجاربه ، وأن يجاهد في سبيل الدقة ويعانى في سبيل أن تكون الكلمات والجمل مماثلة كل المماثلة للتجربة التي أحسها . ولكن سرت إليه بعد ذلك عدوى الغموض والأفكار العامة ، وإذا هو في روايته « لمن دقت له أجراس الموت » يعلق على كل تجربة مرّ بها البطل بآراء تسوغ وجودها وتقويها ؛ لقد كان ينقم على أهل عصره تحميل تجاربهم أفكاراً يفرضونها عليها ، ولكنه وجد أن تأليفه لم تأت بشيء ثابت يمكن أن يتعلق بها ، وأحس الحاجة إلى هذا الثبات فحاوله . ولم يكن موضوع الرواية بجديد؛ إنهم هم أسبان بامبلونا الذين رأيناهم في «الشمس تشرق هي أيضاً» بحب المؤلف لهم وفهمه إياهم ، وليس العيب عيبهم وإنما العيب أنه خلط بين المعاني والإحساسات في سبيل إخراج مادته في صورة فكرة معينة .

إن أهم ما قدمه همنجواي أنه ثبت مذهب البساطة في الكتابة ، ولكنه استنفد كل ما يمكن لهذا المذهب أن يأتي به من فن جميل ؛ لقد كان يؤمن بأن التجربة نفسها لا يمكن أن تعادها أفكار غامضة وآراء عاثمة ، ولكنه ما لبث بعد حين أن مال فيما يؤمن به . وقد كانت مؤلفاته من قبل تحمل بنور هذا الانحراف بما تم عنه من حساسية واضحة بالنسبة لهذه الآراء والأفكار .

وتدخل مؤثر هام في الرواية الأمريكية لا يمكن إغفاله ؛ وهو نظريات فرويد حول مسألة الجنس . فنذ ترجم بريل كتابي فرويد « تفسير الأحلام » و « ثلاث رسائل في النظرية الجنسية » اجتاحت موجة التحليل النفسي مؤلفات كتاب أمريكا . لقد كانت أمريكا بالذات تعانى أزمة معينة من مجافاة حياتها الطبيعية للتعهد الدينى الذى امتاز به المهاجرون الأولون . وبدأ انتقاد هذا التعهد ، بل الثورة عليه ، منذ أيام مارك توين إن لم يكن قبل ذلك . وجاءت نظريات فرويد معينةً جديداً في الصراع القائم بين الواقع والمتزمتين ؛ فلم تكن الحرب

وحدها بكافية لإثارة الشباب ثورة جديدة في وجه هذه القيم المعنوية والتقاليد الخلقية وخاصة في مسألة الجنس ؛ ولكن نظرية فرويد تأتي ونجاح رواية «جويس» عن «بوليسيس» ، وقد نجحت قبل أن تسمح المحكمة بتداولها ، يغرى ، فإذا الكتاب جميعاً يرون في هذه النزعة الجديدة منفذاً لتفسير ما يريدون تفسيره . وإذا الحال الحاملة أو أحلام اليقظة تستغل هي أيضاً لتفسير المتناقضات التي كانت حولهم في كل مكان . لم يعد المؤلف يخفى - كما كانت تفعل برونتي في إنجلترا وجلاسجو في أمريكا - الشخصية الشاذة شذوذاً جنسياً عن أعين القراء ، في قلعة مثلاً . وإذا مؤلفة مثل إفلن سكوت في قصصها « البيت الضيق » و « النرجس » تأتي بالمرضى لتشرحهم أمام القراء . وأصبحت لفظة تقاليد تضحك ضحكاً مريراً ، وأخذت مشاكل الحياة الجنسية تدرس وتعرض في القصص . وإذا القصص كله تعبير مستميت ناقم في عصر بدت فيه الأزمة الجنسية أهم من الحرب ، بل من الحراب .

وقرن الموضوع بموضوع الاتجاه نحو المدن كتيار يعاكس التغنى بجمال الريف ؛ ففي المدن كان المرء يحس الانطلاق من القيود التي يعانها في الريف من التقاليد . كان ينطلق نحو شيكاغو ونيويورك وباريس باحثاً أبدأً عن أفضل ما تتيح له اللذة . ويأتي أندرسون ليصور هذه النزعة بالذات ؛ نزعة الخروج من مكان إلى مكان أفضل . ففي مذكراته « قصة قاص » وفي كثير من رواياته نرى موقف التخلص بالهجرة وقد أحيل إلى موقف مؤثر عنيف ، كل أبطاله يطلقون المجتمع لأنه لا يوافقهم ولا يتمشى مع أمزجتهم ؛ وكانوا يخرجون كما يقول « من أين » لا يدرون و « إلى أين » إلى لا شيء . ولكنهم فيما يظهر يبحثون عن الحقيقة أية حقيقة ، إنها حقيقة مركبة تجافي العالم الصناعي ؛ إنها حقيقة الصناعة التي فصلت الناس عن مجتمعهم ، بل فصلتهم عن أنفسهم . واعتقد أندرسون أنه مبشر بدين جديد . ولا بد لكل دين من شياطين يهاجمون وملائكة يحمون ؛ أما الشيطان فهو الآلة وأما الملائكة فهم ضحاياها ، وكانت شخصياته لا تجد في الحياة المتحررة البوهيمية متنفساً ولا تكاد تبين عن ألمها ؛ ولكنها إذا نطقت دوى صوتها في الآفاق - كما فعلت شخصيات روايته « الضاحك المظلم » . وفي روايته « الأبيض المسكين » نرى البطل الأبكم يخترع آلة زراعية ليوفر على

الفلاحين شقاء الانحناء على الأرض فاذا هو مخترع في ركاب الشيطان ، ركاب الآلة ، وإن يكن قد ظل بسيطاً خجولاً فلقد قضى على جمال بلدته . والرواية بعد تمثل رأياً لفرويد هو تضحية الروح على مذبح المادة . وإذا مزايا الصناعة تخنق كل ما هو قيم في الروح الإنساني . وإذا الإنسان إما أن يظل بسيطاً مغفلاً يعاني نير هذه الحياة وهو لا يدري شيئاً ، وإما أن يثور وأن يخرج من هذا العالم مردداً لنفسه أنه على حق في ترك ما قد ترك . وأذاع أندرسون أسلوباً جديداً لا يعنى بالصنعة ولا باستغلال قوة الأحياء في الحملة . لقد تعلم هو وهمنجواي في مدرسة شتين ، ولكن همنجواي جاءها خالي الوفاض وخرج بما جود فيه وأبدع . وأما أندرسن فلقد جاءها بكل ما يعرف ولم يزد عليه شيئاً . إنه لا يؤمن بالحملة وإنما هو يؤمن بالموضوع كاملاً ، يقول : « إن الكاتب لا يمكن أن يكتب بالشجاعة وإنما هو محتاج إلى الصنعة ، ولكنها هي الشجاعة التي تملئ عليه أكثر ما يكتب » .

وظهرت في الأفق طائفة من الكتاب المحدثين ، همهم الأول أن يصوروا الحياة القومية في أمريكا بكل ما فيها من مزايا وعيوب ، أمناء في تصوير العيوب أكثر من أمناتهم في تصوير المزايا . وأعد « منكن » الجوا لظهور روائيين ينقدون المجتمع - والطبقة الوسطى منه بنوع خاص - وكان سنكلر لويس أقرب هؤلاء إليه ، يرى مثله أن تلك الطبقة ما هي إلا منظر مثير شيق يحفز على السخرية منه . وفي « شارع مين » وجد المادة لروايته الأولى . فعالج مجتمع هذا الشارع بأسلوب فذ وأخرج رواية « شارع مين » . وكان من السهل على القراء أن يلتقوا البطل كارول كنيكوت لأنهم كانوا معدين للقاء أمثاله . وكما وصفت هذه الرواية الحياة في بلدة صغيرة فقد وصفت روايته « بابيت » الحياة في مدينة ناشئة . وكان النجاح الذي لاقته « بابيت » منقطع النظير ؛ فقد وصفت الطبقة الوسطى بكل تراثها الشعبي وتقاليدها وعاداتها . واستغل النجاح فأخذ يكرر الموضوع في عدة روايات قام عليها مجده . لقد عاونه منكن بما كان ينشر تحت عنوان « أمريكانا » في مجلة مركوري ، ولكن روايات لويس عاشت بعد أن نسي منكن وكل ما كتب ، لأن منكن آمن بسداجة تلك الطبقة وأراد أن يجمع الأدلة التي تجعله يسخر منها ، بينما تناول لويس هذه الأدلة فعاالجها معالجة الفنان . رسم جواً عاشه بالفعل ،

وأحب بطله باييت لأنه صورة لأكثر من ألفٍ وصحب . ولم يرد مجرد السخرية وإنما أراد التصوير الشيق الجذاب . وفي مدينته الخيالية « زينث » صوّر العالم الذى يحياه وقد ارتقى إلى سماء الفنان فرأى ما لا يراه المعاصرون . ويمتاز لويس بالتركيز الشديد وتوحيد الآثار ، وهو يجيد عند ما يفعل ذلك فى بساطة ودون تعمل . ولكن صنعته تظهر عندما يترك هذا التركيز جانباً ويفغل عن التوحيد لسبب أو لآخر فاذا هو ينجح إلى الأسلوب الذى أفسد فن معاصريه - أسلوب القضايا والأحكام التى تتحجر فى جمل بعينها تتكرر .

وتختلف ملكة كابل عن لويس بأن لويس كان مملوءاً بالحيوية ، فياضاً بالسخرية الحلوة ، على حين كان كابل ممتاز الأسلوب ساحر الخيال منوعه . وصف لويس الواقع وفرّ من الخيال إلى هذا الواقع فى حين فرّ كابل من الواقع إلى الخيال واستخدم الخيال ليفسر به نفس الأغراض التى من أجلها استخدم لويس الواقع . وفى روايته « زبدة الفكاهة » نرى غايته الأولى ، وفى شخصية فيلكس كناستن نرى العالمين وقد وضعاً معاً لتبيان الاختلاف الجوهرى بينهما . والبطل يفضل عالم الخيال . وفى روايته « جورجى » نرى مزاياه العقلية كلها فى غاية الوضوح ؛ إذ يصور البطل وقد عاد من حياة الملاذ والخيال إلى الواقع ليرى أنه هو أيضاً كله خداع فى خداع . ويأبى البطل أن يكون شاعر المدينة الخيالية الأول بينما تزخر المدينة بسماها وسكانها بالسخرية المرة الواضحة الهازئة من حياة المعاصرين . لقد قام كابل بنصيبه من الجهاد فى الحملة المقدسة على الطبقة الوسطى من معاصريه ، وكان لأسلوبه ، ولاقتناع القراء بما كانوا معدين للاقتناع به أكبر الأثر فى نجاحه الذى كان أكثر مما يستحق .

وأهم ما ألف فيتزرالد روايته « جاتسى العظيم » ؛ فقد قادت إليها كل رواياته التى ألفها قبلها ولم يصل فيما ألف بعدها إلى مستواها الفنى . بدأ حياته الأدبية بروايته « هذا الجانب من الجنة » وكله أمل شاب فى النجاح ، وما كاد الشباب يقرأ له حتى ناصره مدى الحياة ورفعه إلى ذروة المجد والثراء معاً . ذلك أنه عبر عما كانوا يحسون ، وإن يكن قد آمن بأن هذا النشاط العصبى الذى خلفته الحرب يجب أن يكون له متنفساً . وكان أهم ما عنى به دور المال ودور الشباب

في كل هذا . وفي روايته « الجميلة اللعينة » يصور الفرق بين فتيات عصرين ؛ لقد نظر المؤلف إلى عالم واسع عريض يبدأ من وسط أمريكا ويمتد إلى أوروبا ، إلى باريس . وكان عليه هو أن يراه كلا واحداً . وكان كلما رآه كذلك قفز نحو المجد قفزات . وهو يصف هذا العالم في رواية « هذا الجانب من الجنة » إذ يقدم البطل آمورى وقد أمده العالم القديم بكل أفكاره كما أمده بكل أمواله . واستخدم المؤلف بطله ليدلى برأيه في العالم من حوله . وكانت أفكاراً جريئة حرة تعجب الشبان . وفي روايته الثانية التي سارت به قدماً نحو الشهرة « الجميلة اللعينة » يصور المجتمعات النافهة التي كان يعيشها الأثرياء وقد غشها معهم ولكنه بقدره عجيبة استطاع أن يصفها وكأنه ليس منها . واستفاد المؤلف الناشئ من ناقديه وأخذ يصقل مادته ويحكم عليها . وفي روايته التي رفعته إلى مصاف الخالدين « جاتسبي العظيم » نراه يخلق شخصية المعلق ، شخصية كاراوى التي تعلق على كل تصرف من تصرفات البطل . لقد صمم كاراوى بعد الحرب ألا يعود إلى أواسط أمريكا لأن شيكاغو أصبحت مجرد الحدود البالية لعالم القديم . فاختر أن يعيش في ولاية خيالية جديدة غرباً حيث يعيش جاتسبي البطل . وأصبح البطل في نظر كاراوى مسألة يريد أن يدرسها ويدرك كنهها فيثير بها انتباه القراء . وأبرز المؤلف الشخصية إبرازاً دقيقاً محكماً بلغ النوروة في الفن ، ونقد عالنه نقداً شاملاً من نخلل حياة بطله وأقواله . وما يكاد العالم الحقيقي يتصدى لهذا العالم الخيالي حتى ينهار أمامه ، وإذا موت البطل فرصة نرى من خللها انهيار العالم الخيالي وقيمه الزائفة التي كان البطل يحلم بها .

وأتيحت للمؤلف فرصة دراسة حال المتغربين في أوروبا وما يعيشون فيه من ترف وبذخ وكسل ؛ فظل يحاول محاولات لم تتغير فيها فكرة أمريكي من هوليوود في إجازة في أوروبا . وترك الموضوع إلى حين ، أصدر فيه روايته « ما أرق الليل » ، ولكنه عاد إليه ليكتب فيه رواية مات دون أن يتمها وهي « التيكون (١) الأخير » . أما روايته « ما أرق الليل » فهي إن تكن قد ذاعت وانتشرت فإنها

(١) التيكون : منصب ياباني يورث ، ألفى حديثاً ، يخول لصاحبه سلطة القائد الأعلى والحاكم

دون « جاتسي العظيم » قيمة فنية . استعمل فيها نفس الطريقة ، وهي تعليق شخصية على مواقفها وقد جعلها هنا نجماً سينمائياً حديثة النجاح اسمها روز ماري ؛ وقد خرجت لأول مرة لترى العالم من خلل عين زيف نظرتها المجد . وروز ماري تصف حياة أسرة ديفر وأصدقائهم وفي نفسها تطلع غر . ولكن المؤلف يتذبذب بين ما تراه هي من رأى وبين رأى العالم بكل شيء ، أو رأى ديفر نفسه . فاضطربت وجهات النظر حتى اضطر المؤلف في أكثر من مرة إلى أن يقول : « ولنستمر في تبيان رأى روز ماري يجب أن نقول » . والقصة تعالج موضوعاً هام حول الروائيون منذ الحرب وهو موضوع التحليل النفسى ، أى وصف ما بين المعالج والمريض من صلة . وصور هذه الصلة في أمانة تامة ولكن في دراية محدودة ومهارة أقل ، فخرجت غير ناجحة كتبت في سرعة وعلى عجل وإن عبرت عن قلق مؤلفها على أسلوبها . وأحس فشله فحاول أن يصلح الأمر في قصته الأخيرة .

ولم يتبوا فيتزجرالد مقامه في الرواية لأنه دأب على إتقان فنه فحسب ، وإنما لأنه صدق فيما قد صور وأحسن تنظيم خضم المواد التي كانت تتجمع في أذهان معاصريه . إنه لم يظفر بالأساس المتين والاتزان الكامل في الموضوع ، ولكنه أفلح في تصوير الحقيقة أو ما يساويها على حد تعبيره . وهو يعترف أنه لم يكن يهتم بالحياة العقلية أو الفلسفة الفكرية ، ولكن هذا هو الذى عصمه من أن يركز فنه على قيمة الأفكار والفلسفة بدل أن يركزه على قيمته الذاتية . لقد حصر نفسه في الواقع وفي الحاضر فكان له من هذا الحصر مزاياه ولكن كان له منه أيضاً عيوبه . وإن يكن قد حرم من حس دريزر بالتكوين الاجتماعى فلقد عصم في الوقت نفسه من ذوقه الفاسد . وإذا بطله ينجح في كثير مما أخفق فيه بطل دريزر . ينجح في تصوير واقع ما هو إلا حلقة من حلقات تاريخ الثقافة الأمريكية تصويراً محدوداً ، ولكنه صادق كل الصدق .

### صور العنف في البلاغة إبان العقد الرابع

في كتاب رالف فوكس الإنجليزي « الرواية والناس » عرض لتاريخ الرواية الإنجليزية يقول فيه : إن أكثر الآثار الخالدة في الرواية الإنجليزية في القرن الماضى

كانت تصويراً للصراع ضد المجتمع الرأسمالي أو للفرار من هذا الصراع . كما نجد في رواية « مرتفعات وذرنج » و « طريق البشر أجمعين » . أما بطل الرواية الحديثة فأين هو ؟ لقد كان اختراعه العمل الأساسي الأول أمام روائي اليوم .

صور همنجواي العامل البسيط الأبكم ، ولكن الإنجليز أمثال هكسلي بعد سنة ١٩٢٠ أخذوا في تصوير الرجل الآلي ، ضحية الآلة الرهيبة . وإذا رجل الشارع يبرز بطلاً جديداً لروايات هذه الفترة . بل لقد أصبح مجرد الاتجاه إلى رجل الشارع هذا ميزة في حد ذاتها من مميزات الرواية . يضاف إليها ميزة وفرة الحركة التي تجعل الحوادث تتعدد تعدداً جنونياً ، وميزة قلة التأمل بحيث أصبح تطور الشخصيات منطقياً بسيطاً محدوداً ، وأخيراً ميزة جمع الوثائق والمستندات التي فاقت فيضاً عظيماً بحيث أصبحت الرواية وثيقة تاريخية لدراسة المجتمع أكثر منها قصة فنية . أما البطل فهو معروف : هو الشعب أو الجمهور ممثلاً في فرد لا يكاد يتميز منه ، فهو بسيط رجعي جاهل . والحوار بالطبع سهل لا تعقيد فيه ولا غموض ، ولكن لا دقة فيه أيضاً ولا سمو . وأما الأسلوب فلقد ورث عن الفترة السابقة البساطة فجعلها بساطة لا يسندها موضوع ، فاذا هي بساطة تقريرية غير فنية . وصور هؤلاء الروائيون المعارضة التي هاجمت النظام القائم ، وكانوا يستوحون إيماناً شبه ماركسي ، ولم تكن لأكثرهم شخصية . صوروا حياة المصانع أو تصنيع الإنسان ، وفورة المظاهرات وعنف الاضطرابات وتفاعل العمال مع السلطات ، ثم البطالة والشقاء في طلب الرزق والأزقة والأحياء الفقيرة . وقلما عنوا بتصوير أسرة الطبقة الوسطى التي وصفها جوزفين هرست في روايتها « الشفقة لا تكفي » . ولا ترجع قيمة هذه الروايات إلى ما قد قدمت بالفعل لأن رواج أكثرها كان موقوتاً بالعناية بالموضوع الذي تعالج والحادث الذي تصف . ولكن قيمتها كانت فيما أثارت فيما بعد من موضوعات للروائيين في السنوات العشر الأخيرة . فلقد فتحت موضوعات كثيرة مثل موضوع احتكاك الفرد بالجماعة وما ينشأ عن هذا من مشاكل فكرية وعقد نفسية - كما سنرى فيما بعد . ثم قدمت للتاريخ وصفاً لهذه الفترة من حياة الأمريكيين لا يمكن أن يكون أوسع من هذا ولا أدق ، مما أتاح فيما بعد للرواية الواقعية أن تصف العالم كله من خلال هذه المستندات .

وأبرز روائي هذه الفترة الذين ارتفعوا فوق المستوى العادى هم : دوس باسوس ، وفاريل ، وشتينبك . أما دوس باسوس فأشهر مؤلفاته مجموعة « الولايات المتحدة الأمريكية » . حيث يصف أمريكا في السنوات الثلاثين الأخيرة من نخل عدسة المصور ؛ فيصف في رواية « الأرض التي تقف عليها » البطل وقد هجر عالم التجارة . وفي « مغامرات شاب » يصف انهيار الفردية في العالم الحديث . وهكذا من رواية إلى رواية نرى البطل يزداد إحساساً بتفاهة شأنه وقلق مكانه في هذا العالم الجديد . وفي كل قصة نرى المصور الذى يحس كل هذا ويراه ولا يستطيع أن يغير منه شيئاً . ثم يترك المؤلف البطل الواحد ليصف الجماعة في وثائق دقيقة هامة في حياة أمريكا اجتماعياً واقتصادياً . وهو يعود مرة أخرى ليصف الصحة الاقتصادية في روايته « المثلث الثانى والأربعون » . وفي رواية « ألف وتسعمائة وتسعة عشر » يصف الحرب وما قد أطفأت من أمل في حياة الشخصية الفردية . وفي روايته « المال الأعظم » يصف مصرع الخشع الساعى سعياً جنونياً في سبيل المال . وهمه في كل هذا أن يصف المادية الطاغية المهلكة . وأما ألم المصور صاحب عدسة التصوير واحتجاجه فانه يصل في كل هذا إلى ذروة الجودة ، ولكنها جودة أسلوب مراسل صحيفة ذكوى ليس غير . وهو لا يقف بالشخصيات ليدرسها أبداً وإنما يعبر بها في سرعة يريد أن يعرض المجموعة من خلالها . والأحداث تعرض أيضاً بتفاصيلها في سرعة ولكن في سطحية ظاهرة . وإن تكن عين المصور تدمع أحياناً فما ذاك إلا في أشد مواطن اليأس .

وأما فاريل Farrel فهو يصف عالماً آخر ؛ يصف حياً من أحياء شيكاجو الفقيرة وهو يتدهور في بطاء تحت الضغط الاقتصادى والاجتماعى . وبطله « ستدز لونيجان » الذى يصف حياته في روايات ثلاث تولى أشهر مجموعة له ؛ أولاها عن شباب البطل ، والثانية عنه رجلاً ، والأخيرة يسميها « يوم القيامة » . لقد عاش البطل في عالم يسيطر عليه الفقر وتتحكم فيه تعاليم الكنيسة الإرنلندية الكاثوليكية ، وهو يريد أن يصف العوامل التى تختلج في صدره نتيجة تفاعل هذه الآثار ؛ ثم الجهاد الذى يجاهده في سبيل أن تكون له شخصية حرة . ولكن هذا الجهاد

مقروناً بالنصر آخر الأمر لا يصوره فاريل إلا في مجموعته الأخرى « داني أونيل » حيث ينتصر داني فيما أخفق فيه ستدز، فيصبح آخر الأمر كاتباً له رأيه وحكمه على هذا العالم الذي يعيش فيه . ولم يوصف حتى في الأرض بمثل ما وصف به فاريل هذا الحى من شيكاجو دقة تفصيلية وواقعية عنيفة ، ولكن أسلوب المؤلف - وهو لا يعدو في دقته التقارير الصحفية الصادقة - يشكو الضعف وخاصة حيث أراد المؤلف أن يسمو .

ويدرس شتينبك في روايته « موقعة مشكوك فيها » المظاهرات والإضراب على أنها ظاهرة اجتماعية . لقد استقى معلوماته في هذه الرواية من شيوعيين إيطاليين تعلموا في الميدان لا في البيوت والمدارس ؛ فهم لا يعرفون مثلاً ولا أفكاراً وإنما يعرفون الواقع . وهو يدرس التظاهر وما يدخل فيه من عوامل توحيد الصفوف والدعوة إليه ، ويدرس حذاق هذه الظاهرة ، وأخيراً يصف إحساس مشاهد غير متحيز لتلك الظاهرة، يلعب دوره فيها ولكنه يحكم على ما يرى لا بالتأمل والتفكير ولكن بما يحسه ويعمله . وهناك ثلاثة يرون الظاهرة ويعملون فيها تفكيرهم فتكسب الرواية من حوارهم أكبر قسط من قوتها . هذا الطبيب الذي يعيش وحيداً مثلاً يريد ألا تفوته فرصة دراسة جماعة تعمل معاً من الناحية البيولوجية قبل كل شيء . لقد بهر شتينبك نقاده بهذا الحديد الذي يقال في وجهات نظر تختلف عن هذه الظاهرة ؛ وقد ألفوا لها تفسيراً واحداً أو شبه واحد قبله ، وأهم مايؤثر في وجهات النظر تلك فيجعلها تتسق ولا تمتزج ، هو النظرة التي اكتسبها من التفكير في موضوع الأرض وما أفاده من علم في معمل عالم الحيوان . أما فكرته عن الأرض فقد أعانته على تقسيم الناس إلى محبين لها يقدرسونها وإلى غير عابئين بها يسخرونها لأغراضهم . ولولا نظرتهم العالمة من خلل معمل دارسى الحيوان ما نجحت الرواية بالتفكير حول موضوع الأرض وحده إلا نجاحاً محدوداً ؛ ذلك أنه يدرس الإنسان في المعمل ولا يكتفى بأن يراه حيواناً وإنما يريدنا أن نؤمن بما يؤمن به هو وهو لا يستخدم قوانين العلم لأنه لا يحتاج إليه ، ولكنه أصبح ، وقد تصور الإنسان في حيوانيته ، محدود النظرة يحاول أن يظفر بما يؤيد رأيه فلا يظفر كثيراً إلا بتصوير التوافق ، وفي هذا كان عيبه الأكبر .

وكان الروائيون يصورون عالم الأرض معارضاً لعالم الآلة ولكن شتينبك يقول على لسان شخصية من شخصيات «الموقعة المشكوك فيها»: «ولكن الآلة قد اخترعها الإنسان وهو الذى يرسمها ويخرجها ويستعملها». وفى روايته «عناقيد الغضب» يصف كيف أن الإنسان هو الذى سلم نفسه للآلة وضحى فى سبيلها بأعلى فضائله. وإذا الرجل يقتل أخاه محققاً ظاهرة الإقناء فى سبيل الحياة كما هى فى عالم الحيوان. وأخرج فى هذه الموضوعات وما حولها أربع روايات كانت أكثر ما ألف رواجاً. وهو ينظر إلى موضوعه من زوايا ثلاث: الواقعية حيث يوفق كل التوفيق، والرمزية حيث يخفق بسبب التكلف وتحميل الصور أكثر مما تطيق من الرمز، وأخيراً الفلسفية حيث يخفق أقوى ما يمكن أن يخفق، وهو يعرض من هذه الناحية ما سبق أن نشره فى مجموعة مقالات يدافع فيها أسوأ دفاع عن آراء أدركها إدراكاً صحيحاً ولم يعرف كيف يصوغها. أما أسلوبه فهو يهوى فى هذه المجموعة «عناقيد الغضب» إلى أسفل درك. وليس عيبه إلا عيب الواقعيين المعروف: الفقر فى العقل والتفكير الذى يقود المؤلف الواقعى إلى إهمال ملكته فى سبيل غرض بلاغى زائف. وكان نفس هذا العيب عند النقاد أيضاً فلم يعرفوا كيف يصدون تياره.

أما فوكنر Faulkner فلقد عرف فى عالم التأليف شاباً قبل أن يعرف برواياته المشهورة. وهوى عني بالجنوب وما حوله من موضوعات، وكان الجنوب قد أخذ يظهر فى عالم التأليف إما ليوصف بدقة، وإما ليصور انشغال بال المؤلفين على أحواله. ولم يذهب فوكنر إلى نيويورك ليرى الجنوب بعين أهلها، ولم يجلس فى حانات باريس ويعيش عيشها البوهيمية ليردد الأقوال المأثورة المعروفة فى وصفه، وإنما ظل فى منطقة الميسيسيبي حيث عاش آباؤه من قبل. ولنعرف قيمته الروائية لا بد من درس هذه البيئة لأنه يدرسها من خلل أبطاله؛ فى روايته «أمير هندى» صورة لهاملت فى أمريكا الجنوبية، وفى رواية «سارتورس» نرى أثر الحرب والآلة فى رجل من الجنوب. وأما كومسون فى رواية «السليم والهيلاج» فهو صورة رجل قد أفسدت عليه حياته آثار الحرب؛ إذ يعانى البطل محنة أخت زلت. أما فى «أبسالوم أبسالوم» فأننا أمام شاب تعلم فى كامبردج بنيو إنجلند

وأراد بعلمه وفكره أن يفسر غزو القائد شتين للجنوب وفتح إياه . وتأتى مجموعة أخرى لفوكنر تظهر بطلا من نوع آخر : البطل الضعيف الخير . والخير هنا يتلخص في رغبة صادقة في مساعدة الغير ؛ وأما الضعف فهو ليس ضعفاً عن جهل أو عجز عن الفهم ، وإنما هو ضعف يأتى صاحبه من أنه فهم وفهم حتى لم يعد هناك ما يحفزه على مقاومة الشر . ويظهر هذا البطل في روايات « المكان المقدس » و « نور في أغسطس » و « القرية » .

وأما في راتلف فاننا نرى بطلا من نوع ثالث ؛ بطلا يتأمل غزو آل سنوبز لمنطقة يونابنوتا . حيث ينقد بروحه المرح الشعبي النفاذ آثار هذا الغزو وهو يحاول أن ينجى ضحاياه من شره . وأما في روايته « إنزل ياموسى » فهو يصور البطل الخير القوى الذى يحقق ما لم يستطعه راتلف ؛ ذلك أن الجنوب لا يمكن أن يحل مشاكله في نيوانجلند ولا في وشنطن .

ولعل أكثر ما يميز فوكنر من كل هؤلاء الذين ألفوا عن الجنوب هو عنايته بالشكل ، وهو وإن يكن يختلف عن جيمز كل الاختلاف فإنه الوحيد — منذ جيمز — الذى استطاع أن يصور وجهة النظر في رواياته في قوة مؤثرة ممتازة . إنه ليس مجرد قاص " يستعرض كل ما في انحدار الجنوب وتدهوره من بشاعة ، ولكنه يشغل نفسه بتعرف الإحساسات النفسية التى أحسها أهل وطن عايشهم بالفعل وتفسيرها . وكان حسه بأثر الزمن في فهم الشخصيات ممتازاً . فما الماضى عنده إلا جزء من الحاضر مؤثر فيه لا يمكن أن ينفصل عنه . لهذا عنى بتاريخ وطنه قبل عصره .

وعاب بعض الناقدین غموض أسلوبه ، وأنه يشكو آثاراً جاءت نتيجة عدم اختلاط المؤلف بأمثاله من المؤلفين . ولكن هذا الغموض في الواقع ليس إلا محاولة تفسير تعقيد حقيقى يحسه الفنان تحت هذه السطحيات التى يراها الرجل العادى بسيطة . وأكثر رواياته تأثراً بهذا الغموض روايته « دخيل في التراب » .

وأما توماس وولف فانه يمثل في تاريخ الرواية الأمريكية أقوى ما صورت من اتساع الغاية والإمعان في الشذوذ الواضح . وهو يؤمن بأن كل شىء يجب أن يدخل نطاق الرواية . وبالرغم من جهده وجهاد الناشرين معه لم تنج رواياته من

الحشو المستمر والزيادات التي لا تنقطع . وفي رسالة بعث بها إلى فيتزجيرالد نراه يذم الانتقاء والتخير ويعيب روائي فرنسا لهذا . والأخبار تتواتر عن حمله أحمالا ثقيلة مما خط من ورق يسير بها إلى ناشريه ليبتروا ما استطاعوا ويحذفوا من هذا الخضم الصاخب ما يريدون . وأكثر تأليفه في صورة مذكرات خاصة . يقول في كتاب « قصة رواية » : « إنى أومن بأن الإنتاج الفنى لا يمكن أن يعتمد إلا على حوادث حياة الفنان التي حصلت له بالفعل ، فهي التي يجب أن تكون النواة الأصلية لكل تأليف إذا أراد المؤلف أن يكون لإنتاجه قيمة . ولكن الفنان الذى خلق ليخلق لا يستطيع أن ينقل تجاربه مجرد نقل ، وإنما هو يغير فيها بما تمليه عليه شخصيته الفنية . أما أنا فأنى لم أصف حادثاً واحداً من أحداث حياتى كما قد حصل بالضبط » .

وأول أبطاله هو « جانت » فى روايته « نحو الوطن ياملاكى » حيث يصف طفولته وأثر والديه وخلافات الأسرة فى نفسه ، ثم تنتهى القصة برحيله إلى وجهة غير معلومة . وفى رواية « عن الزمان والنهر » يصف حياة البطل فى الجامعة وتعطشه للعلم وتأثره بأستاذه ، ثم يعود إلى وطنه الأول كاتاويا ليحضر جنازة أبيه ، ثم يذهب إلى نيويورك مدرساً فى مدرسة ليلية تابعة لجامعتها ، ومنها يرحل إلى أوروبا ليتعرف نفسه قبل أن يعرف العالم من حوله ، ويعود آخر الأمر مفلساً ..

ولكن المؤلف يعاود كتابة تاريخ حياته من جديد ووصف وطنه الأول - كارولينا الشمالية - متخذاً رواية « نحو الوطن ياملاكى » أساساً له . ولكن روايته « لن تستطيع العودة إلى الوطن » تحتم تاريخ حياته ؛ إذ يصور فيها نفسه وقد نجح ككاتب وذاع صيته وهو يحاول أن يعود إلى وطنه المتدهور تدهوراً يائساً فلا يستطيع ، فيعاود الرحلة إلى ألمانيا من جديد .

لقد أراد وولف عن طريق الكرم وكثرته الزاخرة أن يصل إلى وصف حياة معكوسة على واقع من حال الثقافة الأمريكية . ولكنه ترك مهمة البتر والحذف لناشريه ، لأنه كان كلما تصدى للحذف انزلق إلى الزيادة . وزخر تأليفه بخليط عجيب لا يكاد يصدق وجوده على هذا النحو ؛ فاذا أجزاء يصل فيها إلى الذروة

الفنية في الأسلوب وإلى جانبها أخرى تمثل أحط درك في الركافة والإسفاف . وأبطاله جميعاً عمالقة في سلوكهم وشهواتهم يرددون عيوبهم ويكررون مزاياهم فيتضخمون بهذا الترداد والتكرار . وهم بدورهم خليط أعجب من بطنة حيوانية وتعطش روحى إلى مثل أعلى . ويكفى أن تقارن بين الجزء الذى يصف فيه البطنة ، والجزء الذى يقارن فيه بين حياة البطل والنهر فى روايته « نحو الوطن ياملاكى » لرى بلاغته تتأرجح فى عنف بين القوة والاضطراب .

### السنوات العشر الأخيرة

يمكن أن ندرس الرواية الأمريكية فى السنوات العشر الأخيرة من نواح أربع : من ناحية تأثيرها بكل هذه التيارات التى سبقها منذ فجر القرن ، ومن ناحية استمرار المؤلفين الذين شهروا فى استغلال ما أوصلهم إلى الشهرة من مزايا وموضوعات ، ومن ناحية اتصال تيار الواقعيين الذين ظهروا أوائل القرن واتجهوا وجهة خاصة فى العقد الرابع منه ، وأخيراً من ناحية اليقظة الجديدة للاهتمام بالشكل والإخراج .

وقد سيطر على كل هذه النواحي أثر جديد للحرب الثانية مخالف كل المخالفة لأثر الحرب الأولى . فلم يعد هناك رثاء لقيم قد انهارت أو مثل قد هوت ، أو تقاليد عفى عليها الحادث الأليم ، وإنما كل ما هنالك إحساس بأن الحرب جاءت لتعكر صفو الحياة ، فلم يكن هناك قيم ، ولا مثل ، ولا تقاليد . جاءت الحرب وكأنما هى حادث عرضى قدر سخييف جاء ليعوق سير الحياة . ذلك أن الجندى قد شرد عن وطنه فانقطعت حياته فيه ورأى العالم كله ولم يكسب بهذا الذى رآه إلا القسوة والاشمئزاز ، حتى ذكاؤه لم يفد من تلك الرحاة وإنما أفرد مجرد أفراد . وإذا الأمريكيون يصورون ما يرون حرفياً ، يصورون ملهم ووحدهم فى سداجة وبرود دون تحمس ، بل دون إحساس بأن ثمة رسالة يمكن أن يبشروا بها . والذين شدوا عن هذا التيار إنما شدوا لأنهم تأثروا بتيارات ما قبل الحرب . من هؤلاء كان ابروين شو فى روايته « شباب الليوث » حيث يصور جندياً يهودياً وطيبياً

المانياً ورجلا من هوليوود . ومن خلل هؤلاء ومن حولهم يحاول أن يصور أحداث الحرب وغاياتها التي لم يؤمنوا بها ، ومن خلل الفوضى والاضطراب يصور فقد الأمل في وطن أمريكي يستطيع المرء فيه أن ينسى قلق المدينة ، وفلسفة الكتب ، ويأس الواقع ليتسنى له شاكراً متواضعاً أن يتحرر من نفسه . لقد أراد المؤلف لروايته أن تتسع لما اتسعت له الحرب ولكنه حشاها بالكثير من الحوادث والتعليقات ، ولو أنه حصرها في تبيان هذه الفكرة التي أنطق بها قسيس دوغر عن الشر وما يتشابه في مفهومه من معان وما يختلط حوله من أفكار لنجح . ولكنه أراد الكثير ولم ينظم ما أراد ولم يره لاني قوة ولا في وضوح . وأثرت بساطة همنجواي في هاري براون فأخرج روايته « نزهة في الشمس » يعرض فيها صورة لحياة الحرب بسيطة لا ادعاء فيها . ويعرض ببرز في روايته « المعرض » الأمريكيين وقد عكست صفاتهم وعيوبهم على مسرح ايطاليا ؛ ولكن رواية ميلر « العاري والميت » كانت أكثر هذه الروايات عيوباً وأبعدها مرمى. حيث يصف المؤلف الحرب في حدود جزيرة صغيرة نائية في جنوب المحيط الهادي يتلاقى عليها أمريكيون من تكساس وسان فرانسيسكو ، فيحاول المؤلف تفسير أعمالهم على هذه الجزيرة المشتعلة بالحركة ، المعرضة أبدأ لخطر الموت ، بما سبق لهم من اعداد وحياة في أوطانهم الأولى . وإزاء هذا يجنح الأسلوب نحو بساطة لا يخشى فيها من خطر التعقيد ؛ لأن كل عمل يفسر من زاوية شخصية من قام به .

وهؤلاء الذين لم يذهبوا إلى الميدان كانوا هم أيضاً موضوعاً لم يغفله الروائيون . ولم تظهر رواية كرواية ايرون ستارك « الجزيرة الخفية » في وصفها لهذا ومحاولتها إرجاع أسباب الحرب إلى التوتر الذي فشا بعد سنة ١٩٣٠ . والقصة تدور حول تجارب ستراتون الذي يعلم في مدرسة من مدارس السود ؛ فيصور أصدق تصوير تردد الإنسان إزاء مجتمعه وما يبشر به هذا المجتمع من دعوات . فهو يحاول أن يتفهم تلاميذه ، ولكنه في الوقت نفسه يؤمن بأنهم أعداؤه في الجنس والثقافة . ولكن نجاح الرواية يتلخص في أنها حررت نفسها من الأقوال المأثورة في عالم الواقع السياسي والاجتماعي .

ودراسة حركات التحرير في أوروبا ونزعات الاستعمار أتاحت للمؤلفين

موضوعات يخوضون فيها ، وأمدتهم بأحداث يصورونها، حتى يأس أوروبا حاول هوكس في روايته « آكل اللحوم » أن يصوره في خيال صاخب بعيد يقلد فيه كفكا دون أن يصل إلى إكساب خياله ما استطاع كفكا أن يكسبه من دلالات ومعان . ولكن قيمة هذه الرواية ترجع إلى أنها، بما مثلت من مذهب الواقعيين أكثر من الواقع، محاولة جريئة للفرار من أثر الواقعيين السائد حتى زمانه ؛ فلا هي مجرد تقرير ، ولا هي مجرد خيال منقطع منفرد ؛ إنها تختط طريقاً آخر لا دروس فيه ولا مستندات لتصل إلى مستوى في الدلالة له سحر رمزيتها .

وأما هؤلاء الذين ذاعت شهرتهم من قبل واستمروا يعيشون على مزاياهم التي مهدت لهم النجاح فان منهم دوس باسوس الذي أخرج مجموعة جديدة باسم آخر رواية منها « الخطة العظمى » يتنكر في الأولى لمذهب الشيوعية ، ويعرض في الثانية للفاشية ، وأما في الثالثة فهو يرسم اتفاقية وشنطن الجديدة . كل هذا من خلل ما أصاب أسرة سبوتسوود من أحداث . وهو يختلف في هذه المجموعة عنه في مجموعته الأولى « الولايات المتحدة » لأنه يريد أن يبرز الهوة السحيقة التي تفصل بين الخير في السياسة والخير في الواقع ؛ فيتغنى بنغم خاص من أنغام الديمقراطية هو صوت الرجل الطيب الغرّ في فهمه للحرية وقد وقف بباب وشنطن ليجد لأمره حلا . ولكن مميزات الأسلوب وطغيان مجرد القصص على رسم الشخصية ما زال كما هو وقد أصبح الشارة المميزة لتناج هذا المؤلف .

وكثيرون هم الذين أخذوا يرددون مجرد ترديد ما قد ألفوا من قبل ، بل منهم من أخذ يردد عيوبه وسيئاته دون مزاياه . ومن هؤلاء فاريل في مجموعته التي بطلها برنار كلير حيث يصف حياة مؤلف ناشيء في نيويورك، وكان يمكن لتغير المنظر أن تتاح له آفاق جديدة للإجادة، ولكن المؤلف لم يرها فأخذ يردد موضوعاً طالما رده من قبل. ونزل أسلوبه عن مستواه الذي عرف به . وحاول سنكلر لويس أن يغير موضوعه كأن يتحدث عن مشكلة الأجناس - كما فعل في رواية « الدم الملكي » ( ١٩٤٧ ) - فلم يفلح في أكثر من أن يتغننا بأن لويس إذا جدد فقد الكثير من قدرته على التأثير في قرائه . وأما كولندويل وشتينيك فقد عانى كلاهما خمود الملكة خموداً خطيراً واضحاً ؛ حاول

شتينبك أن يعالج موضوع الفاشية في روايته « لقد أفل القمر » فأخفق حتى في الوصول إلى فهم الموضوع فهماً سطحياً . وكل ما يمكن أن يقال إن هؤلاء الروائيين قد برهنوا على أن عبقريتهم لم تكن من الصلابة أو القوة بحيث تستطيع أن تحيا وتزدهر بعد حى النجاح الأول . حتى همنجواي في روايته « عبر النهر ووسط الأشجار » Across the River into the Trees التي أخرجها سنة ١٩٥٠ نراه متكلفاً مفككاً يجمع أشتاتاً من الموضوعات والملاحظات حول أحداث الحرب وشخصياتها ، ولكنها كلها فجة لا يمكن أن نبالغ في دلالتهاعلى فساد الملكة وضعفها . وقد أصدر همنجواي أخيراً رواية « الشيخ والبحر » The Old Man and the Sea (١٩٥٢) فتغير الرأي فيه وكأنما قد بعثت ملكته من جديد .

وأما مذهب الواقعيين عند من استخدموه في هذه الفترة فانه دليل على حيوية التطورات التي مر بها . لقد تحرر المذهب من الفلسفة الفكرية التي صبغه بها روائيو العقد الرابع . لقد ظهر الإيمان بأن الإنسان فاسد لا بد من أن يدفع ثمن فساده منذ أيام مارك توين ، أما أن هذا الفساد يعود إلى أن الحياة السياسية والحلقية لما تنضج بعد فهذا ما صوره روائيو العقد الرابع حين صوروا سكان المدن الذين خضعوا لفساد لا يمكن إصلاحه . ولكن روائي العقد الخامس يصورون الفساد ليجردونا من كل أمل في علاج أو إصلاح ، يصورونه كما هو متأصلاً لا علاج له ، كما نرى في رواية ويلارد متلي Willard Motley « اطرق أى باب Knock on Any Door » (١٩٤٧) . لم يكن عند هؤلاء الروائيين إلا علم ناقص وروح ضعيف محروم فاستعانوا ببعض معلومات من محاضر البوليس ، وفن مكافحة الجريمة ، وعلم التحليل النفسى ليحشوا بكل هذا روايات لا هدف لها إلا أن تسلى .

قلة قليلة هي التي نجت من هذا التيار ؛ منها رواية نلسون أبلجرين Nelson Algren « ذوالذراع الذهبية » The man with the Golden Arm (١٩٤٩) حيث يعرض إلى الشر الذي خلقه الإنسان ، وبعد أن خلقه لم يستطع أن يفهمه أو يتحكم فيه . وإذا الجريمة ليست إصراراً ولا مسئولية ولكنها حادث عادى من حوادث الحياة . ويستعمل بعض الروائيين هذا التيار لمعالجة المسائل النفسية

الغامضة ؛ فنجده يحلل لنا فكرة الدَيْسَن المعنوي. حيث يصف أحوال البطل مشغولاً عن ضرر لحق برجل آخر ؛ فهو يحاول أن يؤدي واجبه نحوه. وإذا فكرة الالتزام الروحي تعالج من نخل الحوار والمناجاة المؤثرة . ولكن متى يحس المرء أنه أدى دينه في هذه الناحية ؟ هذه هي المشكلة في تلك الرواية .. وأما رواية « السماء الحانية » فان المؤلف بدل أن يصور لنا فيها تفاهة الإنسان وتضاؤله وسط رمال الصحراء وسماؤها وحرها لم يستطع أكثر من أن يرسم المنظر دون أن يسمو إلى تحقيق هدف كان فيما يظهر أكبر من ملكاته .

وبالرغم من كثرة الروايات في تلك الفترة ووفرتها لم يتقدم الفن الروائي كثيراً . كان أكثرها امتداداً للواقعية على حساب العمق ، وقد ساعدت الحرب على هذا فاتجه بعض المؤلفين إلى دراسة الروائيين السابقين ، ولكن هذه الدراسة أثرت في فن القصة القصيرة أكثر مما أثرت في الرواية . من هذه الروايات التي لاتسمو إلى مرتبة جيمز وأمثلة رواية بيتر تايلور « امرأة لها مواردها » *A woman of Means* (١٩٥٠) حيث يقص على لسان صبي في الحادية عشرة من عمره قصة زوج أمه الثرية التي لم ينفع ثراؤها أباه فيما قد طمع أن ينفعه ، وإذا زوج الأب تحب الابن فتنشأ المشاكل والعقد. ورواية فريدريك بوكندر *Fredrick Buechner* « يوم موت طويل *A Long Day's Dying* » (١٩٥٠) لم تكن أكثر من دليل آخر على أن مستوى جيمز لا ينال بمجرد التقليد . والقصة تدور حول مغامرات أم مع مدرس ابنها .

أما رواية تنسي ولينز *Tennessee Williams* « ربيع السيدة ستون في روما *The Roman Spring of Mrs. Stone* » (١٩٥٠) فهي أيضاً تعالج حالة نفسية . إذ تقص قصة نجم سينمائي جاءت روما لتقضى ما بقي من حياتها في هلوء ولكنها تحب شاباً يصغرها كثيراً لا يلبث أن ينبذها . والمؤلف يبذل مجهوداً شاقاً في أن يجنب القصة تحليل الإحساس بالاحتقار الذي أحسته البطلة نحو نفسها . والرواية عامة فاشلة . لأن المؤلف نجح في إبراز موضوع هزيل إبرازاً واضحاً . ومن الموضوعات الشيقة التي لم تعالج من قبل الحساسية الخلقية والسياسية المرهفة وقد عكست على مجتمع يبسط كل شيء تبسيطاً غير طبيعي . وأحسن ما ألف في هذا الموضوع رواية ترلنج « في منتصف الرحلة » حيث يعود البطل

بعد أن أقعده المرض أعواماً إلى مجتمعه ليرى التغيير الذى حدث فيه ، وليرى ما لم يكن قد رأى من قبل ؛ ليرى البساطة التى تعاني منها الحياة العقلية والنفسية .

أما روبرت بين وارن Robert Penn Warren فإنه يعالج الموضوع فى أفق أوسع فى روايته « كفى العالمية والزمان World Enough and Time » (١٩٥٠) حيث يعالج مأساة الضمير الفردى الحر فى مجتمع يندع ويفسد ويملك . وهو يصور فى شخص بطله هزيمة المثل الأعلى الفردى فى أن يتلاءم وشيئاً فى الحياة العامة من قانون أو نشاط أو سياسة . وفى رواية ترلنج « كل شعب الملك All the King's Men » (١٩٤٦) يعالج الموضوع نفسه ، ويحمل الفرد وزراً والمجتمع ، الذى لا بد من أن يدرس من جديد ، سائر الأوزار . ذلك أن الخير لا يمكن أن يكون دستوراً عندياً للجماعة دون أن تحصل المآسى والمكاره . يخرج البطل ستارك من عزله من الأرض التى يفلحها بالآلة فاذا هو جزء من هذه الآلة يثور عليها فيفجعه المجتمع فى كل ما آمن به . وهكذا يبين ترلنج أخطار التبسيط العقلى فى تركيز واضح . فى حين أراد وارن أن يصور فداحة الأخطار واتساع نطاقها فى محاولة الفرد أن ينسجم مع المجتمع الذى يعيش فيه .

واليوم بين يدي الروائيين الأمريكيين الناشئين يقف تراث قرن كامل للرواية يتضح فيه التياران المميزان لحركة التأليف ؛ تيار الأسلوب الممتاز ، وتيار الوثيقة الدقيقة لحال المجتمع . وأهم ما قصدت إليه الرواية هو تصوير فهم معين للحياة ، فهم لاصق بالواقع يترجم الحياة الحاضرة إلى لغة الفن .

ونجح روائيون ممتازون ولكنهم جميعاً قد خلفوا نماذج للجيل الجديد يمكن أن تحتذى ولكنها يمكن أن تتحدى أيضاً . وليس معنى انتصار الرواية الواقعية أن الرواية التاريخية مثلاً لا مكان لها . فدراسة الفن الروائى قد تقدمت بعد أن لم يكن يدرس فن القص إلا فى القصة القصيرة ، وأصبح الميدان أمام الجيل الجديد مفتوحاً مملوءاً بالدراسات التى تعينه . وليس من الطبيعى أن يكون كتاب المستقبل هم هؤلاء المشهورون الآن ؛ فأغلب الظن أنهم سيكونون من الجيل الجديد الدارس المتمرن الذى يريد أن يقول شيئاً جديداً وهو يعرف كيف يقوله .